عجائب أهل الشرق

اسم الرواية: **عجائب أهل الشرق**

اسم المؤلف: **محمد عمر**

تدقيق لغوي: **هاجر علي**

تصميم الغلاف: **محمد دربالة**

إخراج داخلي: **ساندي شريف إبراهيم**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٢٥٨**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٠٣٩**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه
للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

محمد عمر

عجائب أهل الشرق

إبهار
للنشر والتوزيع

بعض الأشياء لا تحتاج إلى وصف دقيق للبدايات، خاصة تلك التي نمثل بأنفسنا جزءًا منها، ذلك لأننا نستطيع أن نلمسها دون الحاجة إلى تخيلها، كقصة خالد! ذلك الشاب الذي ينحدر من أسرة ريفية مستورة الحال. هو أحد أولئك الذين يعيشون في الريف بحكم الولادة، لكن لا علاقة لهم لا من قريب ولا من بعيد بأعمال أهله، كفرخ طير يعيش وسط الدجاج... لم يشعر أبدًا بالانتماء منذ أن عرف الحياة، فلا هو قادر على فعل ما يفعلون، ولا تقبل نفسه، أن يقف أبدًا عند هذا الحد دون انتهاز محاولة للطيران... وفرصة طيرانه تلك تتلخص في حصوله على معدل مرتفع في الثانوية العامة، وفي سبيل ذلك يفعل كل ما في الإمكان. ليس إرضاءً لنفسه فقط، ولا أملًا في تحقيق أمل الأسرة التي تحثُه دائمًا على الاجتهاد، رغم أنه لا يحتاج لتلك الكلمات الحَماسية أو المواعظ التي تتوفر لدى مجتمعنا العربي بالكيلو، بقدر ما يحتاج لها بقية أقرانه، ولكن ربما لأنه يعلم تمام العلم ما يسعى إليه وأن هذا هو سبيله الوحيد ليحلق خارج السرب.

ثم إن دافعه الأول كان لتعزيز فُرصة الدراسة مع بنت الجيران التي هام بها منذ أن رآها أول مرة، كان ذلك هدفه الأول دون أية مثالية أو سعيًا خلف المسميات الكبيرة كتحقيق الأحلام أو استكشاف الذات وغيرها، ذلك لأن كل أحلامه كانت تتلخص في قربها كما يظن كل أصحاب العهد الجديد بالحب، فدائمًا ما كانت تزداد مخاوفه من أن تدرس هي تخصصًا أعلى مما سيدرسه في الجامعة فيكون الفراق المَحتوم بينهما.

ذلك الشاب البسيط كان يتساءل يوميًا في كيف أن لبعض الدرجات أو للتخصصات المختلفة أن تفرق بين اثنين اختارا أن يكونا معًا؟، أو

بالأحرى كما كان يظن هُو! فهو وإن كان يفهم بعض الفيزياء والكيمياء وغيرها إلا أنه لا يفقه شيئًا في القواعد الاجتماعية التي تربى عليها أهله ومحيطه بالكامل بعد، ثم ربوه عليها فيما بعد بدورهم بطبيعة الحال، فهي أمور شئنا أم أبينا تنتقل بين الأجيال كالنار في الهشيم.

وعلى الرغم من أنه لم يصارح تلك الفتاة أبدًا بمكنونات صدره، ولم يكن على أي قدرٍ من اليقين من مشاعرها تجاهه، لكن لغة العيون بنظراتها القصيرة والدافئة تلك، كانت تكفيه ليفعل كل ما كان في استطاعته ليفوز بقُربها أو يتبادلا بعض أطراف الحديث يومًا ما، ذلك الاجتهاد المُضني في فرصةٍ لمحادثتها كانت شبه مستحيلة، لأنه لم تكن تتوفر في تلك الفترة أيًا مما نتمتع به الآن من تقدم تكنولوجي كالهواتف النقالة أو برامج المحادثة التي تمكننا من الوصول لأي شخص مهما ترامت بيننا المسافات في لمح البصر. حتى أن الهاتف النقال وفكرة الأرقام نفسها كانت من الخيال، فالرقم الوحيد الذي يشغل خاطره دائمًا هو رقم الجلوس في لجنة الإمتحان، فمستقبله كله رهن هذا الرقم...

لم يكن خالد ومعشوقته يتواصلان على الإطلاق سوى في لحظات تجمعهم عند عبورهم للطريق سويًا أو في مقابلة غير مرتبة عند تبادل الهدايا بين الجيران في المناسبات المختلفة، لكن ورغم قصر تلك اللحظات إلا أن قلبه كان دائمًا ما يتخلى عنه فيها، وينعقد لسانه ويتعرق جبينه وترتجف كل أركان جسده النحيل عندما يراها، وكأنه يؤكد قول الأحنف عندما قال:

لي في محبتكم شهود أربع وشهود كل قضية اثنان

خفقان قلبي واضطراب جوارحي ونحول جسمي وانعقاد لساني...

فأصبح هيمانًا بها طوال الوقت، يعتبر التفكير فيها ملاذًا من كل تناقضات العالم وضغط المذاكرة، بل كانت هي الملاذ الآمن والوحيد من كل ما لم يكن على هواه من مشاكل البيت والمشاحانات التي لا تكاد تنقطع، فتعلم الوحدة حتى اعتادها وأصبح لا يمل من الجلوس والحديث المتواصل مع نفسه، مما ساعده على التعرف على شخصيته بصورة أوضح، وكأنه في تلك السن الصغيرة قد عرف مبدأ التبريزي القائل: فكم من منعزل لا يشعر بالوحدة، وكم من مجتمع في الزحام وحيد. ذلك لأن الوحدة هي وحدة الوجدان لا وحدة الأبدان...

مر ما يقارب العام وانتهت فترة الامتحانات تلك وأخذت معها كل التوتر والقلق والانشغال، لكنها خلقت حالة من الترقب والانتظار، فأصبح الكل في حالة تأهب واستعداد لظهور النتيجة وإمكانية تحقيق الأمل وإن بدا عليهم عكس ذلك، لكن قبل هذه الفترة بأيام قلائل وخلال فترة الامتحانات، كانت دعاء تختلق بعض الأعذار لتحادثه، أو كما كان يظن هو!... فكانت أسعد لحظاته عندما ترسل له في طلب بعض ملخصات المواد أو الأسئلة المتوقعة وغيرها، فأصبح يكتب لها عبارات عاطفية بطرق سرية كشفرات دافنشي في رسومات مادة الأحياء التي كان يتقنها هو، والتي ربما لم تلحظها هي أبدًا، وذلك لأنها كانت مخفية في منتصف رسومات مراحل انشطار الخلية، أو بداخل أعمدة تخطيط الجهاز التناسلي الذكري والأنثوي على حد سواء مهابة أن يراها أو يتفقد الأوراق أحد أفراد أسرتها الّذين كان يتم تناقل المذكرات والملازم عن طريقهم. كانت تلك

الفترة مهمة جدًا في حياة ذلك الشاب مكنته من تجاهل كل المُشاحنات والصراخ داخل المنزل، بل وزادت من إصراره على النجاح، فتعززت دوافعه لإثبات أنه يمكن أن يحصل عليها بمجهوده بعيدًا عن المكان الذي نشأ فيه.

ثم أتت اللحظة الفاصلة، تلك اللحظة التي شابهت في فعلها وداع نوح عليه السلام لابنه وقت أن انهمر الماء وساد الفيضان، ولحظة أن ضرب موسى بعصاه البحر فكان تفريق الماء بإذن الله، ذلك اليوم التعيس الذي تتوارى فيه الأمهات عن الانظار خجلًا من مجاميع أبنائهن، وكأنهم قد فقدوا عذريتهم فيما لا يحمد ولا يقبل، يوم تتلاشى فيه الصداقات المصطنعة، وتظهر به الأمراض النفسية والعقد الاجتماعية التي تصاحب أصحابها طوال العمر...

ذلك اليوم الذي ينعم فيه البعض بالفرح وتلقي التهاني، لكن يصاب فيه الأكثرية بالحزن والبؤس، وتتوالى عليهم الأيادي والسباب والعُصي كأمطار الشتاء الموسمية، كل ذلك لأنهم لم يحققوا أحلام آبائهم وأمهاتهم فقط، متناسين أنهم لم يُسألو من قبل حتى عن أحلامهم الشخصية، أو حال التعليم في بلادهم... وهذا ظلم بين!

ذلك اليوم الذي يظن فيه الطلاب أن حياتهم قد انتهت بسبب فقدانهم لبضع درجات، لكن كيف تفقد ما لم تملك بعد؟، بل ويخيل لهم أن الحياة تقف هناك عند أبواب الكليات، والمحزن في الأمر أنهم لا يفعلون ذلك حبًا في العلم بقدر ما هو طمعًا في اللقب، مع أنهم على معرفة بقول الله تعالى: ولا

تنابذوا بالألقاب، لكن مهما كان الحال فلا يتجاوز ذلك إلا القليل من المتصالحين مع أنفسهم. والغريب أن أهل الألقاب يتناسون أنه ما زالت هناك فرصة بعد ذلك لكل منهم في أية جامعة سيلتحق بها ليجتهد ويصبح معيدًا أو دكتورًا، فأنى لهم أن يرو ذلك!، ربما لأنهم يبحثون عن تحصيل سريع للقب، فيرغبون في المناداة به من أول يوم في الجامعة حسب التخصص، وإن كان الطالب لا يعرف حقًا ماهية ما يدرس بعد، ثم نتعجب من أهل الغرب لما يكون لأحدهم عددًا لا يحصى من الأبحاث ورسائل الدكتوراة والكثير الكثير من الإنجازات ولا ينادى سوى باسمه.

فمتى سنقدر الأشخاص لما يقدمون وليس لشخوصهم؟

ولأن خالد جزء من ذلك المجتمع وفرد في تلك المنظومة فيجري عليه ما يسرى على أهلها...

فعند ظهور النتائج وعلى غير المتوقع حصلت الفتاة على معدل أعلى منه بثلاث درجات وهو ما يمثل الكثير في بلده تلك وضمن نظامها التعليمي. ذلك الحزن الذي ألّم بقلبه حينها لا يمكن لأي كلمات أو حروف أن تصفه، حتى اللغة العربية بكل إعجازها وقدرتها الفائقة، أو مواساة المقربين بتعددها وتنوعها وبلاغتهم فيها لا يمكن أن تظهر قدر الفقد الذي أحلّ به وقتها... لا لأنه أحس بالانهزام أمام الموقف فقد فعل كل ما بوسعه متقبلًا وراضيًا بقضاء الله، كما لم يكن لأنه يخاف ألا يتمكن من دراسة ما يحب بقدر ما كان خوفًا من أنه لن يدرس مع معشوقته، فأصبحت فكرة الفراق بينهما كأنها الفكرة الوحيدة التي تتجلى في الأُفق. لك أن تتخيل أن

شابًا حصل على معدل يمكنه من دراسة الهندسة التي تمناها طوال حياته يأبى قلبه أن يفرح ويرفض وجهه أن يبتسم، لأنه قلق بسبب ما قد يتبع ذلك من عقبات، هي على الأكثر عقبات عاطفية ليس إلا.

مرت بعض الأيام ومكن الفتاة مجموعها من أن تدرس الصيدلة في إحدى جامعات القاهرة. فلم تعد تبادل ذلك الشاب المسكين أيا من النظرات أو حتى العبارات المعتادة كصباح الخير أوكيف حالك؟ حتى وإن كان وجوبا عليها أن تفعل من باب الزمالة السابقة. لكن ولأنه لاشيئ في ملكه الله يحدث إلا بأمر الله، فقد تقبل الأمر وراح يعتمد أوراقه لدراسة الهندسة ويحاول أن يشرح موقفه لها فربما تفهمت الأمر وبدآ علاقة شرعية تفضي إلى الزواج...

لكن، وما أكره ما يأتي بعد لكن! خاصة في مثل ذلك من ظروف، لكن ولأن نظام دولته التعليمي قد طرأت عليه بعض التغيرات في تلك السنة بالأخص، والتي كانت نتيجة لزيادة عدد الدارسين، ورغم قلة مجموعهم إلا أن كلا من المتقدمين كان يضع الطب رغبة أولى والهندسة رغبة ثانية وهكذا... اعتقادًا منهم أن الحكومة ستعدل من مجاميع القبول لما ترى عدد رغباتهم... وهو ما يخالف العقل والمنطق، لأن الأمر يعمل وفقًا لعدد الطلاب الراغبين في دراسة تخصص ما وكلما كان التعداد على دراسة تخصص ما فوق الحاجة وفوق طاقة استيعاب الجامعات يتم رفع معدله ليصعب على البعض الآخر... وعلى الرغم من أن رغبته الأولى كانت الهندسة، درجة أنه لم يلمس سواها لحظة التقديم، فنادى أخته الصغرى ذات الخمسة أعوام وطلب منها أن تكمل ملئ الرغبات بأية طريقة، فلا

تهمه إلا الرغبة الأولى والتي هو على يقين بأنهم سيألون إليها طبقًا لمعدل السنوات السابقة... إلا أنه اكتشف ودون سابق إنذار أن معدله الذي كان يمكنه من دراسة الهندسة التي يعشقها طبقًا لمعدل العام السابق لم يكن كافيًا هذا العام لفعل ذلك؛ طبقًا لقرارات وزارة التعليم، وحينها أيقن أنه قد خسر قلب من عشق بسبب العادات وفقد فرصة دراسة ما أحب بسبب بعض الدرجات.

مأساة حقيقية أليس كذلك؟

ولكن إيمانًا بالمبدأ القرآني القائل وعسى أن تكرهوا وعسى أن تحبوا... جاء نتيجة لذلك أن طلب منه والده بعد صلاة المغرب أن يتحدثا على انفراد أمام المسجد، لأول مرة في حياته... لأول مرة يشعر أن هناك من يهتم فيسأله ماذا تريد أن تفعل؟

ذلك الشعور وحده كان أفضل من الالتحاق بكلية الهندسة... فبادره والده الذي عاش حياته بالكامل متنقلًا بين جمع الأخشاب وتصديرها للبلدان العربية، محاولًا أن يخرج من عباءة الفقر التي ورثها عن أبيه تلك، أن قال له: لو نفسك تدخل الكلية اللي ماما بتقول عليها دي مافيش مشكلة... نبيع الأرض اللي هنبني عليها البيت الجديد وتدرس في جامعة خاصة وإن شاء الله انت تتعلم ولما ربنا يكرمك تبنيلنا بيت أحسن منه...

فرد هو بنبرة راضية قائلًا: الله يكرمك يا حاج، لكن الحمد لله أنا عملت كل اللي ربنا قدرني عليه وهو عارف إني ما قصرتش... فأنا حابب أشوف ترتيباته ليا، ما دام قدر إني ما ألحقش الكلية دي بسبب كم درجة...

الأب: يعني انت متأكد من قرارك؟

خالد: أيوه الحمد لله... أنا مفوض أمري بالكامل لله، خاصة إني مش ممنوع من الكلية علشان مقدرتي العلمية ضعيفة ولا حاجة، بس لأنه نصيب وكأن ربنا بيقول ''حتى لو قريب منها وجايب مجموعها ومافيش نصيب فيها فأكيد مش هتدخلها...''

التمس الأب طعم تفويض الأمر إلى الله من ولده، ذلك الذي كان ما يزال يظنه لا يعرف حتى معنى التفويض أو حسن الظن، فرد قائلًا: طيب الحمد لله، المهم تعرف إن مع انشغالي لكن مش هقصر معاك ولا مع اخواتك مهما حصل، وربنا يعيننا على تربيتكم...

خالد: الحمد لله يا حاج، ربنا يباركلنا في وجودك.

الأب: طيب يلا نرجع البيت، نتعشى وبعدين نرجع لصلاة العشاء.

خالد: اتفضل!

ظل خالد يفكر طوال الطريق إلى المنزل في دهشة والده من اختياره وتوكله على الله فقط لحداثة سنه، فهل من الممكن أن يكون أبي أحد أولئك الذين ينظرون للسِن على أنه مقياس للخبرات والفهم وهذا ظُلم!

ظلم للأطفال الذين ولدوا في أحقاب الحروب ومناطق الصراعات، ظُلم لأولئك الذين ولدوا بأمراض مُزمنة أعيتهم هُم وذويهم الذين تحملوا في مواساتهم صبر أيوب وآلام فراق أم موسى، ظُلم بيّن وصريح لشباب البلدان العربية والإفريقية وخاصة أهل الطبقة الفقيرة منهم وعلى رأسهم المثقفين الذين هم أشد بؤسًا من الكُل، فرغم الفقر عانوا وتعلموا ومات

من مات منهم دون أن يدري عن متاع الدنيا سوى فنجان من القهوة وقت انتظار مقابلة العمل التي طُرد منها .

-طفل في الثانية عشرة من العمر لم يعرف مؤنسًا إلا الله، أو آخرًا لم يسمع إلا صوت القذائف خلال طفولته، ولم يعرف إلا فراق أحبائه قبل أن ينتهي اللقاء، وكتب عليه أن يعلم أنواع الغازات وآثارها بدلًا من أن يعرف طريق الحدائق والرحلات المدرسية، يضاهي بأعوامه القليلة تلك عجوزًا أوروبيًا شارف السبعين لم يعرف من عيش الدنيا إلا الهناء، تتلخص آخر معاناته في انقضاء الأسبوع دون نزهة، أو تعصبه عند زيادة السعرات الحرارية في وجبة عشاء دسمه.

من مر بتجارب المرض والفراق والاضطهاد وانعدام المساواة والظلم والوحدة وتلاشي الاختيار قد هرِم وشاب وإن كان ابن العاشرة، والعُمر في نظره ما هو إلا رقم تذكرة في عيادة طبيب، رقم لا يأبه له ولا يتذكره لأنه لن ينفع وقت شراء الدواء.

وكلما مرت الأيام كلما أصبح خالد لا يرى التعليم إلا سببًا في تخلي من أحب عنه، وخاصة في ليال الصيف الشرقي الطويلة تلك، فولدت لديه فتور شديد في استكمال ذلك الطريق، فلم يقدم خالد على التقديم في أي من الجامعات التي تتوافق مع معدله ذاك. وبات هائمًا لعدة شهور بين القرى والمحافظات المختلفة باحثًا عن عمل، وفي يوم من الأيام وحينما كان يساعد الأسطى غالي في تقطيع بعض الأخشاب، قال له الأسطى غالي: لكما أردت دائمًا أن أصبح مثقفًا لأقرأ لأولادي أو أراجع لهم بعض

الدروس، لكني كنت أحتقر المدرسة في صغري ولا أولي اهتمامًا لكلمات أهلي الذين كنت أعتقد أنهم يرسلونني إلى المدرسة تخلصًا مني لا أكثر، لكنني الآن أقسم لك أني ألوم نفسي كل يوم على إيضاع كل تلك الفرص لأنادى بالأستاذ غالي بدلًا عن الأسطى خاصة في هذا المجتمع البائس الذي يقدر الألقاب أكثر من المهارات، وكأنهم يحاربون الله لما قال ولا تنابذوا بالألقاب، والله يعلم أني أرغب في ذلك ليس حبًا في اللقب ولكن تشريفًا لأولادي، ومحبة في التشاور وإبداء الرأي في بعض القضايا والأمور التي لا يُسمع لأمثالنا فيها ولا يُعتد لقولهم...

بات خالد ليلته يفكر في كل كلمات الأسطى غالي محاولًا تفادي الأخطاء التي وقع بها الرجل طوال حياته، ولحسن الحظ كانت ما تزال لديه الفرصة في تقديم أوراقة لبعض الكليات، فاختار دراسة إدارة الأعمال بإحدى جامعات القاهرة قبل انتهاء مدة الفصل الدراسي الأول ب ١٨ يومًا فقط. اكتشف من خلال المحاضرات في يومه الأول أن زملاءه على مستوى يؤهلهم من دخول الامتحانات بالفعل، لكنه يشعر وبسبب تأخره أنه في مكان لا ناقة له فيها ولا جمل، فهو على الأرجح لن ينجح في الامتحانات مهما فعل، وعلى الرغم من ذلك فالأمر يستدعي المحاولة، كما أن كلمات الأسطى غالي الرنانة ودافع عدم الرغبة في تكرار تجربته ما زالت تترنح أمام عينيه كالبندول.

فتعرف على بعض الطلاب وقام بتصوير كل ما قد يساعده في دخول الامتحانات من أوراق ومراجع، وعاد مسرعًا إلى حجرته التي كان يتشاركها مع خمسة أشخاص آخرين. عقد الشاب العزم ومنذ هذه اللحظة

على أن يذاكر ويراجع كل ما يعرفه أقرانه، وقد ساعده في ذلك عاملان: الأول أنه كان يحب المذاكرة طبقًا لأنه ما زال على عهده القديم بالدراسة لفترات طويلة خلال الثانوية، والثاني والأهم: أن مقررات الفصل الدراسي الأول من السنة الأولى تكون بسيطة نسبيًا، فكان جدوله أن يذاكر لمدة ١٦ ساعة يوميًا تتخللها بعض الدقائق للصلاة وتناول بعض الطعام لا أكثر.

كانت الثمانية عشر يومًا المكتظة بالمذاكرة كافية ليحتل بها ثاني أعلى ترتيب على دفعته في فصله الدراسي الأول، فما كان منه إلا أن حافظ على هذا الترتيب وتجاوزه ليصبح الأول في عامه الثالث والرابع، ساعده في ذلك قراءاته المتعمقة في الإدارة ولغته الإنجليزية المتقدمة التي اكتسبها من مشاهدة الأفلام الأجنبية ومطالعته للقصص الإنجليزية التي لم تكن تنقطع، والتي مكنته من الاطلاع على أنجح طرق الإدارة الدولية وغيرها، وفي عامه الأخير رشحته الجامعة لمسابقة دولية في الإدارة فتم اختياره ليكون أحد المبعوثين إلى الخارج لدراسة الماجستير، لم تكن هناك أية اتصالات تذكر بين الشاب ومعشوقته القديمة خلال أربعة أعوام سوى في أحد الأيام وخلال جلسة حديث رجالي مع أصدقائه القدامى، قال صديقه بكر: أتعلمون يا رفاق أني أحادث فتاة ما كل ليلة ونتسامر حتى الصباح، وعلى الأرجح أنت تعرفها يا خالد، فهي من حيكم، ومع أنها تدرس تخصصًا علميًا مرموقًا وعلى قدر عال من الجمال إلا أنها تحب التراب الذي أسير عليه، وهذا إثبات على أن كل الفتيات يحبون عذب الكلام لا أكثر...

هنا ساور الشك خالد واشتعل شيء ما في صدره خلال جزء من الثانية، فراح يقول: ومن هذه يا سيد زمانك؟ يبدو أنك تعرف كل شيء عنها، لكنها

لا تعرف منك إلا صوتك، ولو كنت رجلا بحق ما كنت تتحدث عنها بهذا الشكل أمام الآخرين... يبدو أنك لا تعرف حتى كيف تكون عاشقًا في الحرام... وإن كنت رجلا بحق أعطني الرقم الذي تهاتفها من خلاله وأعدك أنه في أقل من ثلاث دقائق لن تسمع منها ربع كلمة مرة أخرى طوال حياتك.

فقال ذلك الصديق: هدء من روعك يا رجل، أنا أفعل ما يحلو لي، وكل الفتيات غير العفيفات اللاتي على شاكلتها لا يجب إلا أن يعاملوا إلا بتلك الطريقة الوضيعة.

فقال خالد: يا هذا، إنها تحادثك أنت لأنها وثقت بك. لكن يبدو أنكما تريان بعضكما بصورة مقلوبة، فأنتما لا تنتميان لنفس العالم، وعلى كل إن كنت تظن أنها تموت في تراب قدميك، فأعطني الرقم ولنرى...

فقال بكر: وماذا لو أنها حادثتني مرة أخرى وفزت أنا بالرهان بعد محادثتك لها؟

خالد: أتعتبر هذا رهانًا ... حسنًا! فأنا أراهن أن الدنيا بخير وأنها عفيفة تحبك بصدق لا أكثر... وإن يكن فأعطني الرقم وإن فزت أنت فسأدفع لك إيجار السكن لشهر كامل...

بكر: لا بل لشهرين، لتتعلم ألا تتدخل فيما لا يعنيك...

خالد: حسنًا لك ما تريد...

في الحقيقة لم تكن لهفة خالد تنبع من خوفه أن تكون هي الفتاة التي عشقها صغيرًا وهام بحبها شابًا... لكن لأنه قد أحس أنه أهين في جيرانه وسكان

الحي الذي يقطنه، فتوجب عليه أن يقف دفاعًا عن المكان الذي تربى فيه... فأخذ رقم الهاتف وذهب للغرفة المقابلة. رن الهاتف مرة ولم يجب أحد، فأعاد الإتصال، لكن لا مجيب أيضا للمرة الثانية، فتأكد لديه أن تلك الفتاة عفيفة، خاصة وأن الوقت كان بعد صلاة العشاء مباشرة، فلا أحد ينام حينها والكل في سكون يمكنه من الإجابة من المرة الأولى، ومع فرحه بعدم ردها إلا أنه أصبح يتمنى أكثر أن يرد أحدهم ليحذرها من ذلك الفتى المدعو بكر، وفي نهاية الاتصال الثالث ردت قائلة: مرحبًا!

فأجاب خالد: مرحبًا، أنا في غاية الأسف للاتصال بك دون سابق معرفة، فأنا لا أعرفك ولا أنت تعرفينني، لكن أرجوك اسمعيني لدقيقة واحدة ثم اغلقي الخط، والقرار لكِ...

هي: حسنًا... تفضل.

سرد خالد في أقل من دقيقة ما كان من صديقها الذي تحادثه، كما أخبرها عن الرهان، وأنه لا يرضى لها أن تهان بهذه الطريقة، وفي نهاية الدقيقة قالت: شكرًا لك ومتأسفة لأنه توجب عليك فعل ذلك، وقبل أن يرد انتهت المكالمة.

عاد خال للغرفة الأخرى، وراح بكر يقول: ها قد جاء أبو السبع رجال... لأثبت لك أنك قد خسرت وأنها لا تستطيع الابتعاد عنى سأهاتفها الآن أمامكم...

الجميع في صوت واحد: حسنًا، افعلها ولنرى...

جرس طويل ولا مجيب... وفي المرة الثانية الهاتف المطلوب مغلق، فقال بعض الحضور يبدو أنك قد تماديت في ظنك يا بكر، لقد طارت الحمامة يا معشوق الليل... وتعالت الضحكات.

بكر: لا يمكن الحكم على ما حدث خلال دقائق، لننتظر ونرى.

خالد: حسنًا، يوم أن ترد عليك مرة أخرى لأي سبب تفز بالرهان...

فخرج بكر مسرعًا في حالة من الغضب الشديد، وصاح الجمع، فعلت خيرًا يا خالد، لم نكن نظن أن بكر لا يؤتمن لهذه الدرجة، جزيت خيرًا على فعلك

مرت الأيام وظل فؤاده مشغولًا بقول بكر حينما قال: أنها من الحي الذي يقطنه، لكنه راح يقول في نفسه: هذا ليس صوتها فمن تلك الفتاة؟؟

وانقضى الشهر وفي طريق العودة إلى البيت لقضاء الإجازة الشهرية المعتادة، ظل يبحث عن وسيلة نقل أريح من سيارات البيجو التي يصطف الناس داخلها بين ٦-٧ أفراد رغم صغر حجمها وقلة فتحات التهوئة بها.

فظل يسير إلى أن أوصلته قدماه إلى إحدى الحافلات التي تذهب إلى مدينته. فاستقلها وراح يقول في نفسه: كم أني من الغباء بمكان! فلم أفكر في هذا الخيار أبدًا، رغم أن الأجرة أرخص حتى من سيارات البيجو تلك، والمكيف هنا لا يقدر بثمن في حر الصيف الشديد هذا، لكن الحمد لله فتدبيره أفضل من كل تدبير، والحول منه والقوة.

وما إن جلس على مقعده المحدد برقم ٧ والذي هو ناحية الممر، جلس ممتعضًا يحاول أن يرى المنظر من النافذة، متسائلًا إن كان بالإمكان تغير

المقعد ناحية النافذة، ليحصل على مزيد من الاستقلالية وقلة الحركة التي تمكنه من قضاء الوقت في النوم أو مطالعة كتاب.

لكنه التفت إلى أن رقم ٧ هو رقم حظه، فكيف له أن يتخلى عن رقم حظه ليجلس بجوار النافذة فقط!! لا سأجلس هنا ولنرى ما الذي قد يجلبه هذا الرقم هذه المرة. قال هو في نفسه ناظرًا إلى الرقم!

مرت خمس دقائق وشارفت الحافلة على الانطلاق، فخُيل إليه أنه ربما يفوز بالمقعدين إن لم يأت من يجلس بجواره، وقبل أن ينهي حديثة الداخلي، ظهرت فتاة على باب الحافلة تقول للسائق: شكرًا لك على انتظاري، فقد كنت على قدر كبير من الظمأ ولا يبيع الماء هنا سوى قلة من الباعة الجائلين، فاضطررت للذهاب لمكان أبعد قليلًا.

لا مشكلة على الإطلاق يا آنسة، أجاب السائق.

وما إن اتجهت الفتاة نحوه ورأي وجهها الذي لم يلقاه لأكثر من عامين. إلا وتصلبت أوصاله وتحجر وجهه بين المصدوم والمبهور، لا يمكن لهذا أن يحدث، أنا أتخيل بكل تأكيد، لابد أن أستفيق من هذا الوهم، يقول هو في نفسه، لكن صوتها قطع تلك التكهنات وهي تقول: خالد! يا لها من مصادفة عجيبة؟

خالد: مرحبًا، كيف حالك؟.

هي: بخير الحمد لله، هل لي أن أجلس أولًا ثم نتحادث؟

خالد: بكل تأكيد، تفضلي.

هي: شكرًا لك، لا تقلق هذا مقعدي، ابتعت التذكرة باكرًا، غير أني ذهبت لشراء بعض الماء.

هو: حسنًا! يا لحسن الحظ.

هي: وإن يكن حظًا أو مصادفة، فما الفرق؟

هو: في الحقيقة ابتعت التذكرة دون أن أختار المكان لأني أستقل الحافلة لأول مرة، وما إن رأيت الرقم حتى تبين أنه رقم ٧ وهذا رقم حظي.

هي بابتسامة باهتة: حسنًا إذًا، وإن يكن، المصادفة أني لم أجلس بجوار شاب هنا أبدًا رغم أني أستقل الحافلة لما يزيد عن العام، ومن العجيب أنك أول من أجلس بجواره من الرجال مصادفة.

هو: في الحقيقة أنا لا أؤمن بشيء اسمه المصادفة، فكل ما يحدث في ملك الله هو بتدبير الله.

هي: حسنا يا شيخ خالد، وما هي الحكمة من لقائنا غير المرتب اليوم إذًا.

هو: ربما استكمالًا لماضٍ أو بداية لجديد، أو إنهاءً لأمر ما.

هي: ما كل هذا! هل يمكنك التوضيح أكثر؟ فأنا لا أحب اللوغاريتمات، يكفيني ما أدرس من كيمياء.

هو: لا شيء تحديدًا، الغريب هو كم أننا نعرف بعضنا طوال تلك الفترة من الدراسة والسكن في نفس الحي. لكننا لم نتحادث وجهًا لوجه أبدًا.

هي: نعم هذا غريب بعض الشيء. لكن المثل يقول أن تأتي متأخرًا خير من ألا تأتي.

هو: بكل تأكيد.

استمرا على تلك الحال من الحوار العفوي طوال رحلة العودة، وما إن اقتربت الحافلة من المحطة حتى بادرته دعاء قائلة: سأعطيك رقم هاتفي ويمكن أن نتهاتف فيما بعد لترتيب رحلة عودة في المرة القادمة بعيدًا عن الحظ أو الصدفة.

هو : سيكون هذا رائعًا.

سأنزل أولًا لأن أخي بانتظاري بالأسفل، ولا أريد لأهلي أن يظنوا الظنون، قالت هي مُلملمةً حاجياتها.

هو: حسنًا بكل تأكيد، إلى اللقاء.

هي: شكرًا لتفهمك، إلى اللقاء!

وما إن نزلت وانتظر هو حتى ينزل كل الركاب، إلا وقد همّ بتسجيل رقم هاتفها الذي كانت قد كتبته على قطعة من ورق، وهنا كانت المفاجئة! هذا الرقم ليس بغريب، هذا نفس الرقم الذي أعطاني إياه بكر والذي اتصلت بصاحبته منذ عدة أيام... يا إلهي! كم أن الشكوك قد تأكدت، وكم أن قدر الله أفضل من كل شيء. هو من ساقني إلى الحافلة دون علم، وهو من أجلسني بجوارها دون اختيار، حتى هو من جلب لي رقمها أمامي دون أية نية للسؤال عنه، لكن هذا لا يكفي، يجب أن أقطع هذا الشك باليقين.

فأخذ حقيبته الصغيرة وترجل من الحافلة، وفي طريق عودته للبيت كان في أشد لحظات حزنه، بعد أن كان قلبه فرحًا يتراقص لرؤيتها، كم أن أمر هذا القلب غريب، يفرح ويحزن لأقل الأسباب وفي أزمنة قياسية.

وها هو يصل باب المنزل محاولًا أن يرسم ابتسامة مصطنعة على وجهه، مرممًا انكسار قلبه، متحكمًا بتسارع نبضاته حتى لا ينكشف أمره أمام أمه، التي حالها كحال الأمهات جميعًا، تعلم عنه وعن وجنات وجهه ما لا يعرفه هو.

ويمضي يومي الإجازة على مضض وبتثاقل غير معهود، ليقرر أن يتصل بها مساء يوم الأحد ليسألها إن كانت ستسافر غدًا أو لا؟.

فكانت إجابتها نعم. لنسافر سويًا فربما لن نلتقي كثيرًا في المستقبل، لأن الامتحانات على الأبواب.

هو: شكرًا لكِ، نلتقي غدًا عند حافلة الثامنة صباحًا بإذن الله.

حسنًا، إلى اللقاء، قالت هي.

في صباح يوم الإثنين وعلى عجل لملم خالد أشيائه وودع غرفته وقبّل رأس أمه ووجنتيها بعد تناول لقيمات من طعام الإفطار البسيط، ثم غادر مودعًا إياها إلى محطة الحافلات، يبدو أن قدمه ستعتاد ركوب الحافلات؟ أو لا؟ فلقاء اليوم هو من يقرر كيف ستجري الأمور. ومن العجيب كيف أن علاقتنا بشخص ما من الممكن أن تتوقف على إجابة سؤال واحد بعد أن كانت الأماني و الأحلام أن نلقاه ولو لوهلة بسيطة أو نعرف أخباره. لكن السر يكمن في الكرامة، نعم! فكرامة الرجل وخاصة رجلًا شرقيًا بحق، لا تقبل أن يعرف عن ما يحب فعل السوء ويرضاه، أو حتى أن يتماشى معه دون أن يرضاه، لأنه ببساطة لو تماشى مع ذلك اليوم فما باله يفعل فيما تبقى

من أيام ومواقف؟ لذا يتلخص كل شيء في أن كل القرارات التي تتخذها الكرامة صائبة وإن أوجعت.

وقبل أن يصل إلى المحطة لمحها من بعيد تقف على مقربة من الحافلة، فقال في نفسه جملة أخيرة مفادها: لا تتردد واسأل عن كل ما تريد فربما يكون هذا آخر لقاء، تشجع لأجل كل تلك اللحظات التي تمنيتها بها.

هي: ها أنت قد وصلت أخيراً.

هو: صباح الخير، عذرًا على التأخير.

هي: لا بأس، لكني كنت أظن أن الفتيات هن من يتأخرن لأسباب اللباس والتجمل وغير ذلك!.

هو: نعم! وأنا أيضًا سمعت عن ذلك، لكنني في الحقيقة لم أواعد فتاةً من قبل، وساعتي لا تعمل إلا بمواعيد الرجال الغير منضبطة كما هو حالنا في الشرق كما تعلمين...

هي: أتمنى أن تعلم أنني أمازحك لا أكثر، وفي الحقيقة أنا من تعمدت الوصول باكرًا لشراء تذاكر لكلينا في نفس المقعد، لأن كثيرًا من الطلاب والعاملين يسافرون في الحافلة الصباحية، فأردت تجنب الجلوس المتفرق...

هو: شكرًا لكِ، أنا لم أفكر حتى في هذا الأمر.

هي: لا بأس! فارق الخبرة يا أستاذ، أنا على هذا النهج منذ عام أو أكثر.

هو بابتسامة فاترة: هذه الحال أفضل من حال البيجو المزدحم دائمًا، فابتسمت هي بدورها وصعدا الحافلة.

هي تظنه لقاء مسافرين كالمرة المنصرمة، وهو يرتب الأفكار والكلمات في رأسه مخافة أن ينسى شيئًا مهمًا يجول بخاطره، أو حتى مخافة أن يندفع خلال الحديث وليس له أي حق في ذلك فيُفسد بنفسه كل شيء.

جلسا في نفس المقاعد التي جلسا فيها في رحلة العودة، وقبل أن يتعجب خالد، قالت هي: لا تتعجب فرقم ٦ هو رقمي المفضل، لذا أحاول الحصول عليه في أكثر من مكان، وهنا بدأ خالد الكلام قائلاً: يا إلهي! في الحقيقة كنت أتعجب لنفس السبب، كيف لي أن أجلس في نفس المقعد من المرة السابقة والذي يحوي رقمي المفضل، رقم ٧.

هي: ماذا تقول؟ هل ٧ هو رقمك المفضل؟

هو: نعم.

هي: ياللمصادف..!، وقبل أن تنهي الجملة التفتت نحوه فلمحت عيناه تقولان، ها أنتِ تتحدثين عن الصُدف مرة أخرى!!!

ثم بدلت حوارها قائلة: بالحق يا خالد، ماذا قصدت بقولك: أن كل شيء مدبر ولا مجال للصدف في المرة السابقة؟

هو: أظن أنكِ سخرت مني حينها وقلتِ أني أستشيخ.

هي: نعم قلت ذلك لأني لم أعقل الكلام حينها، لكنني بعد أن عدت للبيت استعدت الحوار جله في رأسي، ووقفت على أسئلة كثيرة أريد إجابات لها.

هو: هل فعلًا استعدتِ كامل الحوار في عقلك، كان يقولها فرح النفس يتراقص قلبه فرحا بكل تأكيد، محاولًا ألا يظهر شيئًا من هذا على وجهه.

هي: نعم! وأول سؤال عن الصدف، فماذا قصدت بقولك: أليس هناك صُدف؟

هو: حسنًا، هل تتذكرين أننا حفظنا القرآن سويًا في الصغر في نفس المكان؟

هي: بكل تأكيد، فقد كان شيئًا شبه يومي.

هو: كم قدر تدبرك للقرآن إذاً؟

هي: تدبر! نعم أعرف شرح بعض الآيات التي تعلمناها أو تلك التي أشاهدها في التلفاز وقت غداء الجمعة من حديث الإمام الشعراوي.

هو: حسنًا إذًا! هناك آية كريمة في كتاب الله الكريم بسورة القمر يقول فيها: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وهذا معناه أن كل مطالعة أو بحث أو مذاكرة أو قراءة خبر أو حتى مشاهدة شاشة التلفاز، ما هي إلا أسباب يسببها الله تعالى لطفًا بنا لاكتساب المعارف والتنعم بنعمة العقل! لذا فالأولى والأوجب هو أن نألوا بالأسباب ونستخدمها في معرفته هُو...

لأن كُل عملٍ وأي فعلٍ أو ملخص أو بيان أو معلومة أو جُملة أو كلمة أو حتى الحرف الذي لا يتصل بغيره، إن لم يُعدنا إلى الله تعالى ويساعدنا في فهم حُسن تدبيره لنا، إن لم يمكننا من الوقوف على جزءٍ من عظمتهِ وقدرته وتقديره في حدوث الأشياء فهو مضيعة للوقت... فسبحانه هو القائل:" إنّا كل شيء خَلقناهُ بقَدر" قدرٍ معلوم ووقتٍ مَعلوم وكيفيةٍ معلومة، وهنا يتبدد مبدأ الصُدفة...

هي: يا الله! كم أني لم ألاحظ هذه الآية من قبل رغم قراءتي لها كل تلك السنين.

هو: لا بأس! فكلنا نحتاج لمن ينبهنا أحيانًا بصورة أو بأخرى.

هي: يبدو أنك ستغير نظرتي للأشياء.

هو: في الحقيقة هذا لا يحتاج لتدخل خارجي، فأرواحنا تعرف الطريق، المهم هو أن نعطي أنفسنا الوقت للتفرد بالروح وسؤالها عنه لتسمح لنا باستكشافه..

نعم، يبدو أن حياة المدينة الكبيرة قد أخذتني من القرآن، وأعترف أنها جرفتني بعيدًا عنه بعض الشيء، قالت هي برأس مثقل للأسفل تنظر للتذكرة بقليل من خيبة الأمل.

فقال خالد: هل يمكنني أن أحادثك بصراحة أكبر؟ فأنا أرى أنك عفوية وتتحدثين بصراحة لم أكن أتوقعها.

هي: نعم، فليس هناك داعٍ للحرج ما دام في المباح، إلا أن الحياء واجب، فأرجوا ألا يتم تجاوز الحدود.

خالد: جميل جدًا، ولا تقلقي فأنا لن أتحدث فيما لا يصح.

هي: حسنا! تفضل إذًا.

خالد: هل الرقم الذي أعطيتني إياه المرة الماضية يعود لكِ؟

هي: نـــع م. ولا!

هو: هل هذه لعبة الحروف المتقطعة؟

هي: في الحقيقة إن الرقم لي، غير أني حصلت عليه من إحدى الفتيات في السكن منذ أسبوع، فهي لما رأت من حالي المزري بعدما سرق هاتفي النقال في السوق، أعطتني رقمًا إضافيًا كان معها لأستخدمه، كم أن مثيلاتها قلائل! أليس كذلك؟

هو: الحمد لله... إذًا فأنتِ حديثة العهد بهذا الرقم، ولا تعرفين بكر؟

هي: من بكر؟ ولماذا يشغلك شأن الرقم؟

فقال مسرعًا: لا شيء هام، كل ما في الأمر أن رقمك يتشابه جدًا مع رقم شخص أعرفه يسمى بكر، فكنت في حيرة من أمري إن كنت تعرفينه!

هي: لا في الحقيقة أنا لا أعرف أيًا من الرجال ولا شأن لي بهم سوى محاضري الجامعة.

هو: حسنًا هذا أفضل، هل يمكنني أن أشري لكِ رقمًا بديلًا عن هذا مخافة أن يتشابه الأمر على أشخاص آخرين يعرفون بكر، فيتصلون بك خطأ ويزعجونك؟

هي: لا داع للأمر، غير أنك أولى بتلك الأموال، فهذا الرقم سيفي بالغرض.

هو: أنا مُصر، فأرجوك أن تقبلي الرقم الجديد الذي أبتاعه لك من محطة الحافلات فور وصولنا وأن تتخلصي من هذا الرقم، واعتبريه بديل شكر عن تذكرة الحافلة التي اشتريتيها لي في الصباح.

هي: حسنًا يا أستاذ، وردًا لك على تعليمي مبدأ النظر للأمور بصورة أعمق، "فالوقاية خير من العلاج" ولنطبق هذه القاعدة اليوم إذًا.

أريد أن أوضح لك شيئًا بخصوص العفوية في الكلام، قالت هي.

فرد خالد: ما هي؟ تفضلي.

هي: في الحقيقة إن عفويتي قد بدأت منذ أن دخلت كلية الصيدلة، وكان لأمي دورًا كبيرًا في هذا الجانب.

هو: وما علاقة والدتك بالكلية؟

هي: العلاقة ليست في الكلية تحديدًا وإنما فيما حدث منذ انضمامي لها، فالكلية عامل زمني لا أكثر.

خالد: وما الّذي حدث؟

هي: منذ أن قبلت في تلك الكلية وأثناء احتفالنا بالمجموع وغير ذلك، كانت خالتي دائمًا ما تنفرد بأمي لتحادثها بأمور لم أكن ألتفت إليها، لكن في ذلك اليوم قررت السؤال عن ماهية السر العظيم الذي تخفيانه، فردت خالتي في عجالة قائلةً: لاشيء هام يا دكتورة، فهو تحصيل حاصل، إننا نرتب أمرًا سيدخل السرور على قلبك ويسعدنا جميعًا بكل تأكيد. فسألتهما وما هو ذلك الشيء؟ فقالت خالتي: لتصبح الفرحة فرحتين، قررنا خطبتك لعماد ابني

ولما لاحظت ملامح الرضا والقبول على وجه أمي لم أنبس ببنت شفه، ولم أدافع عن موقفي وحقي فيمن أختار أو أحب، وارتضيت ابن خالتي فقرأنا جميعًا الفاتحة يومها دون خطبة، ومنذ ذلك اليوم وأنا موعودة له، بل منذ ذلك الوعد وأنا لا آبه لما يحدث حقيقة، لأن مستقبلي مرسوم بريشة أمي وألوان خالتي، فأمي تقول: ولما لا وهم الأغنياء!، سيساعدك عماد في

كل شيء فهو الولد الوحيد وكل ذلك سيألو لكِ، وإن أردت أن تكملي في مجالك فلن يتأخر عن ذلك وسيفتح لك شركة أو معمل للأدوية في أي مكان وبأية تكلفة... إن الدجاجة قد وضعت ذهبًا يا بنيتي منذ أن فاتحتني خالتك في هذا الأمر... هذا ما كانت تذكرني به أمي كل يوم تقريبًا... وهذه قصة حديثي العفوي بكل صدق يا خالد، فأرجو أن تعرف أنني لم أكن أتصنع الخجل مسبقًا، ولولا أنهما فعلا ما فعلا لكنت حاولت أن أصل لمن أراده قلبي بصدق... حتى وإن كانت العادات ستنتصر على أية حال!

كان خالد يستمع للقصة التي تكاد تكون من محض الخيال وهو في أقصى درجات الدهشة. درجة أنه لم ينتبه أن الحافلة قد وصلت للمحطة.

فنادته بصوت عالٍ: خالد! هيا بنا يا أستاذ لقد وصلنا.

هنا انتبه خالد وقال: أنا آسف في توتر وعجالة، لنشتري الرقم الجديد إذًا، محاولا تفادي النظر لها بأية طريقة.

فترجلا من الحافلة وذهبا لمحلات الهاتف الصغيرة التي تبيع الأرقام الجديدة، اشترى لها رقمًا يكاد يُحفظ من أول مرة، وأعطاه إياها قائلًا: مبارك عليك الارتباط يا دكتورة وأرجو الله أن يحقق أمانيكِ.

فردت قائلة: شكرًا يا خالد، أنا سعيدة جدًا بحديثي معك، ولن أتردد في التواصل معك لمزيد من المناقشات حول التدبر والتأمل.

خالد: بكل تأكيد، يجب أن أذهب الآن لألحق بالمحاضرة.

هي: وأنا أيضًا إلى اللقاء.

أما هو فقال لسانه إلى اللقاء، في حين أن روحه رددت وداعًا يا حب العمر المنقضي.

وفي طريق ذهابه للجامعة لم يكن يخطر بباله سوى جملة واحدة، سبحان مسبب الأسباب.

فهو لم يرَ الأمر إلا تدبيرًا من الله ليوفر عليه عناء هذا الطريق، وليعلم مبكرًا ألا يتعلق بها، فهي ليست له.

في الناحية الأخرى كانت هي تقول لنفسها: الحمد لله أني قد أخبرته بقصتي أملا في أن يفهم وألا يتعلق بي...

لكن حاله بعدها قد أصبح كمن مات له عزيز وهو بالفعل ما حدث، فقد ماتت داخله، وانطفأت شعلة الشوق لرؤيتها، كما أن تلك السنون من الحب لها والهيام بها قد تبددت في كلمات، وانقطع التواصل بينهما بكل الصور والسبل، ولا يمكن لكل كلمات الدنيا مجتمعة أن تعوض فاقدًا أو تواسي فاقدًا فيما فقد، فكم من العجيب ألا يحادثها رغم علمه بطريقها أشد العلم، مع أنه كان يتمنى أن يعرف مكان ظلها فيما مضى؟؟

وأي عجب يمكن أن يذكر ما دامت الكرامة الشرقية حية فينا!

لكن وخلال الأيام الأولى تبين له لم يتخطَ مرحلة أن يلوم نفسه على أنه لم يصارحها مسبقًا، وعلى أنه لم يعد للبيت أكثر من مرة في الشهر، وعلى أنه لم يحب سماع أخبار الحي من أمه بداع تجنب الغيبة والنميمة، فربما أخبرته أمه منذ عامين عن أمر الخطبة تلك، أو أنه فاز بقلبها أولاً، لكن بعد عدة أيام من تدارك الموقف رأى أن الأمر من الماضي، وأنه ما يلوم نفسه

عليه لم يكن ليغير شيئًا لأنها قالت أن العادات والتقاليد ستنتصر، فهذا يعنى أنها على قدر ولو بسيط من الترحيب بالأمر، فالتماشي مع الفكرة نفسها قبول لما تألو إليه. والجوهر من الموقف تلخص في أنه وبات موقنًا من أنه لا شيء حدث في ملك الله إلا بأمر الله، وكل شيء بقدر وميعاد ووقت محسوب، لذلك لم يكن له أن يعرف هذا الأمر من شخص آخر، ليبقى ذلك السر بداخله، وهذا نوع من ستر الله عليه، فابتسم فرحًا وزاد تفاؤله محاولًا أن يرى رسائل الله الخفية في كل موقف.

مرت الأيام وهو على عهده بألا يحادثها أو يفكر فيها عن عمد لسبب ديني أولًا وهو قول النبي صل الله عليه وسلم كما جاء في صحيح مسلم :المسلم أخو المسلم فلا يحل له أن يبتاع على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه، حتى أن مدة إجازته الشهرية قد طالت لحاجة في نفسه كالتي كانت في نفس يعقوب عليه السلام، وإن كان يتحجج لأمه بأن السبب هو الامتحانات، إلا أن السبب الحقيقي كان تفاديًا لرؤيتها، ظنًا منه أن هذا سيساعده في نسيانها. لأن أهل الشرق يقولون'' البعيد عن العين بعيد عن القلب'' لكن لا أعتقد أن هذه المقولة فعالة مع من أحبوا بصدق، ففي كل مرة كان يفكر في أن يستقل الحافلة كان يعد نفسه بألا يجلس في أي مقعد لا يحمل الرقم ٧ وفي الحقيقة هو لم يستقل الحافلة بعدها أبدًا، فعاد لسيارات البيجو وتكدسها وقلة تهوئتها وأجرتها العالية نسبيًا، لكنها رغم كل ذلك كانت أرحم عنده وله من أن يراها أو يمر من مكان مرت منه.

إلا أنه لا يمكن أن يتفادى المرور من الحي أو أن يرى سكنها من وقت لآخر، بحكم أنهم جميعًا يعيشون في نفس المكان، حينها كان لسانه يردد تلقائيًا ما قاله المتنبي:

''أبلغ عزيزًا فى ثنايا القلب منزله

أنى وإن كنت لا ألقاه ألقاه

وإن طرفى موصول برؤيته

وإن تباعد عن سكناي سكناه

يا ليته يعلم أنى لست أذكره

وكيف أذكره إذ لست أنساه

يا من توهم أنى لست أذكره

والله يعلم أنى لست أنساه

إن غاب عنى فالروح مسكنه

من يسكن الروح كيف القلب ينساه''

يستشعر في كل مرة أن تلك الكلمات كتبت له، خصيصًا لوصف حاله وكل من على شاكلته. فلا يشعر بالموقف إلا بمن مر به، وها هو يطأ نفس المكان الذي وطأه المتنبي من فرقه وشوق.

ومضت الأيام على هذه الحال حتى قبيل التخرج بوقت قصير، لتتزوج أخته الصغرى وتزداد عليه مرارة الفراق لعدة أسباب.

ومضت الأيام على هذه الحال حتى قبيل التخرج بوقت قصير، لتتزوج أخته الصغرى وتزداد عليه مرارة الفراق لعدة أسباب.

فحتى مع كونها قد تزوجت شخصًا تحبه إلا أنه لم يكن يرضى ذلك لها أبدًا، ربما لأنه كان يرى فيها أملًا في أن تستكمل تعليمها وتحوذ دورًا في المجتمع يساهم ويساعد في تصحيح الوضع الذي كانا يريانه مزريًا في كل محادثاتهما، لكنها وبفرط حب المراهقة قررت أن ترتبط بإنسان يكبرها من أصحاب المال، ذلك القدر من المال الذي يفسد أضعاف ما يصلح، لكنه لم يكن له حظ من العلم على الإطلاق، رغم كونه قد تعلم قليلًا حتى حاز شهادة الثانوية العامة، حينها فقط تملكه شعور بأن العالم يتضائل، واستوحش وحدته لأول مرة منذ أن تعلمها وتعودها، فحتى تلك التي عرفها في صغره وخُيل إليه أنه يعرف كل خططها وترتيباتها وأنها لا تكتم عنه شيئًا، قد كتمت عنه سر ارتباطها ونيتها في الزواج مبكرًا كل تلك الفترة! وتزوجت بشخص فقير جدًا لا يملك شيئًا سوى المال!

وبعد انتهاء الحدث الجلل من زحمة الدعوات ومقابلة المعازيم وحفل الزفاف، عاد إلى غرفته الصغيرة وكأنه قد عاد لأربع سنوات خلت، نفس اللحظة ونفس المكان وذات المنظر ولكن بإحساس مضاعف من الحزن، فكل الفراق فراق إلا الأخت فإنها لا تعوض، وبدا له أنه لم يشعر بكسرة قلب في حياته كما أحس بفقدانه لأخته تلك الليلة، فلم يبكِ على فراق أحد من الأحياء كما بكى حينها، وكل ما كان يتملكه وقتها هو أن جزءًا منه قد تم انتزاعه بكل قسوة. لكنها سُنة الحياة التي لا بديل عنها، وفي فضل أخته وفضلهن جميعًا لا تكفي الكلمات ولا تحوى محبتهن العبارات، فكما هو

الحال دائما تعجز الكلمات عن وصف الإحساس، فبعد أن تزوجت بقي هو وحيدًا، يفكر فيها ويشتاق لها، مدركًا أنه لم يعد لديه الحق في محادثتها وقتما شاء خوفًا من ضيق الوقت و تجنبًا لإزعاجها.

فمن تلك الأشياء والأشخاص الذين نأخذ وجودهم في حيواتنا تملكًا هُن الأخوات، فلا نعرف قدرهن ومحبتهن وفيض عطفهن بحقٍ إلا عندما يتزوجن أو يفارقن البيت بسفر أو غيره. فمعهن يكون العشاء في منتصف الليل بهجة، وسُخف الأحاديث لذة، حتى أن تلك الضحكات ذات الصوت العالي والتى هي ممنوعة في الغالب هي دائمًا الأصدق، والصراعات بيننا والضربات والنغزات وأوقات الصراخ والشجار الذي يتحول إلى محبة زائدة فيما بعد هو الأثمن، والخصام بيننا لا يدوم سوى سويعات، ولا شك أبدًا أنهن من يبدأن بالصلح في كل مرة، وذلك لطيب قلوبهن وسوء مزاجنا نحن الرجال كأطفال، نظن أن الرجولة لا تتمثل إلا في السيطرة والخشونة.

كما تذكر خالد بعدها لما حان وقت عيد ميلاده أن أخته هي الوحيدة التي كانت تفاجئه بعيد ميلاده! فصار يحتفل وحده، بل في معظم الأوقات لا يحتفل، فقد كانت هي مواساته عند شجاره وضيق صدره، ومتعته عند مللله، كانت بكل حق أجمل شيء في حياته وحبها لا يمكن إلا أن يكون هبة من الله، فصار يشتاق لها ولضحكاتها وتعليقاتها والسهر معها، حتى أنه بات يشتاق لتوبيخها ولمواساتها وحبها الخالص، ليعترف قلبه موقنًا بأنه ومهما يحيا من الأعوام فلن يجد أحن من أخته، فالبيت دونها بلا طعم حتى تحضر، وكأنها تحضر الفرح والسرور معها ليجتمع الكل وتعم البهجة.

إن الحياة مع الأخوات هي كالحلقة التي لا رأس لها، ولنا جميعًا في الخنساء رضي الله عنها المثل والعظة: فالخنساء لما فقدت أخاها صخر هي من قالت: أنا أعظم العرب مُصيبة فقد فقدت أخي، وقالت في قصيدتها:

أفيا لهفي عليه ولهف أمي ... أيصبح في الضريح وفيه يُمسي!

فإننا نحن الرجال ربما فينا بعض القسوة وهذا ما اعتدناه، لكن حتى وإن كن بعض الأخوات لا يُحسنَّ التعبير أو المصارحة بمكنونات صدورهن لإخوانهن بسبب عجز اللغة أو الخجل الذي هو من صفاتهن، فلا شك أبدًا أنهُن الأحن والأطيب والأكثر عطفًا ورحمة.

وبالعودة لخالد فقد تبين له أن ما أحس به من فراق لمن يحب، هو أمر لن ينتهي عند هذا الحد، بل سيستمر معه ما استمرت الحياة، فاستقوى بالله ولملم حزنه الذي لم يعلم به أحد واستجمع قوى قلبه وقرر المغادرة إلى الجامعة لاستكمال امتحانات الفصل الدراسي الأخير بها، عازمًا على ألا يعود لهذه الغرفة الكئيبة إلا للضرورة القصوى.

وفي يوم سفره وحين توديعه لأهله رن جرس الهاتف هو: ألو! السلام عليكم.

المتصل: وعليكم السلام أنا جارتكم مدام سناء

هو: أهلا بحضرتك، كيف الحال؟

هي: الحمد لله بخير، أليست الوالدة موجودة؟

هو: لا والله للأسف خرجت لقضاء بعض الاحتياجات وستعود في وقت قصير بإذن الله.

هي: حسنًا! لو سمحت أبلغها أن خطوبة ابنتي غدًا إن شاء الله، وسيكون جميلًا أن تشرفونا بحضوركم.

هو بحروف متفرقة: حـــــــاضر... سأبلغها حالما تعود بإذن الله.

هي:شكرًا يابني! إلى اللقاء.

فألقى بسماعة الهاتف على الأريكة بغضب شديد، وظل يفكر في هذا القدر الذي يلاحقه، قائلًا لنفسه: ألم يكن بالإمكان أن تكون هذه المكالمة من نصيب أحد آخر في هذا البيت، يا ربي حتى يومي الأخير هنا لا يكاد ينتهي دون مشاعر سلبية!

حضرت والدته فأبلغها بفحوى المكالمة وظل يتربص نبضات قلبه وتعبيرات وجهه التي ربما قد تفضحه أمام أمه خلال تلك اللحظات الأخيرة، فبدل الحديث على عجل قائلاً: مش هعرف أكون معاكي في العزومة دي يا أمي، فأنتِ تعلمين أن الامتحانات لا تنتظر أحدًا

ولكن يا بني إن الامتحانات لا تبدأ إلا بعد ٤٠ يومًا؟، قالت أمه.

فرد خالد: وهل تعتقدين يا حبيبيتي أن الحصول على أعلى مجموع كل عام لا يتطلب المزيد من الجهد؟ فأنتم من علمتمونا قول الله تعالى: وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، ونحن على يقين بأن كل ساعٍ يجازى على فعله الحسن قدر اجتهاده وكده، لقول الله تعالى: وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى، فاسألي لي التوفيق والسداد والأجر عند الله.

-وفقك الله وأعانك ونفع بك يا خالد، لكن تذكر أن تهاتفني حالما تصل إلى السكن الجامعي لأطمئن. قالت الأم واضعة وجنتيه بين راحتى يديها كما تفعل كل الأمهات وقت تدليل الصغار.

فأجاب خالد: بكل تأكيد يا أمي، إلى اللقاء.

في أمان الله، قالت أم خالد.

وما إن وضع قدماه في سيارة البيجو ٥٠٤ المعهودة، إلا وشكر الله وحمده على أن أمه لم تلحظ عليه علامات الحزن أو التأثر بفراق أخته للبيت، ثم أنها لم تسأل كثيرًا عن ماهية مغادرته للجامعة قبل الامتحانات بوقت طويل، مخيلًا لنفسه أنه قد تمكن من طيبتها وأقنعها بحجته الضعيفة تلك، فأمه تعرف أنه اعتاد أن ينهي كامل المقرر الدراسي قبل بدء الفصل الدراسي بزمن، ذلك لأنه مؤمن بأن عمله الرئيسي هو أنه طالب بدوام كامل، ولهذا فإنه يفعل كل ما بوسعه ليستغل ذلك المنصب ويستخدمه أفضل استخدام.

وكما هو معهود تمكن خالد من التخرج بمجموع يؤهله لأن يصبح معيدًا في الجامعة، فهو الأول على صفه طوال أربع سنوات دراسية، لكن وقبل أن يعود للبيت استقبل مكالمة من رئيس القسم يخبره فيها بأنه قد تم ترشيحه لاستكمال دراسته بالخارج، وأنه من المقرر أن يسافر خلال أيام معدودة، فانشغل في تخليص الأوراق وتوثيقها الذي يسرق الوقت متنقلًا بين مكاتب الجامعة ومجمع التحرير ومكاتب الوزارات والهيئات المختلفة لتحصيل التوثيق. فضاع الوقت ولم يملك سوى يوم واحد قبيل السفر يعود فيه

للبيت لتوديع والديه وإخوته. فكان وداعًا سريعًا على مائدة عشاء أعدتها أمه، وأخذ الجميع يثنون عليه تفوقه ومثابرته وهو مطأطئ الرأس ينظر لهم فلا يرى إلا نوعًا آخر من أنواع الفراق هو بطله هذه المرة.

يرجو الله أن يكمل رحلته ويعود ليرى كل تلك الوجوه غير منقوصة، ليفرح معهم ويضمهم ضم الغائب الذي بدده الاشتياق، يارب احفظهم واجمعني بهم دائمًا على خير، قال خالد في نفسه وعيناه لا تفارق وجه أمه.

ثم سافر خالد تاركًا خلفه كل تلك المشاعر والذكريات آملًا في تحقيق مزيدًا من التقدم في مجاله إلى ماليزيا، تلك الدولة حديثة العهد بالعمار والتقدم الاقتصادي، بل هي صاحبة أفضل نظام اقتصادي حديث، يأمل أن يتعلم منه قدر ما يستطيع لينفع به وطنه الأم الذي ما انفك يشم رائحة ترابه ولم تستبدل صوره في مخيلته بعد، متمنيًا أن يُحدث تغييرًا ولو بسيطًا فيه يبقى له أثرًا بعد مغادرته، فمن العظيم أن تعلم لماذا تفعل شيئًا ما قبل أن تبدأه، فتحديد الهدف يقصر الطريق ويسهل المهمة.

أما عن حال ماليزيا قبل النهضة التي أحدثها وأسسها مهاتير محمد، فقد كان الناس يعيشون في الغابات وقد كان متوسط دخل الفرد لا يتجاوز الألف دولار سنويًا، وقد كان أغلب أفراد الشعب يعانون من الفقر الموحش والذي أدى بعد ذلك إلى نشوب صراعات دينية على أشدها بحكم أن ماليزيا بها ١٨ ديانة، كما أن بها العديد من الأعراق المختلفة التي تتنوع بين المالايا والصينيين والهنود وأقليات أخرى.

بدأ السيد مهاتير محمد منصبه بعدما تقلد منصب رئيس الوزراء ولما سُئِل عن النهضة الماليزية مؤخرًا في مكتبة الأسكندرية قال: أنه استوحاها من أفكار النهضة المصرية لمحمد علي باشا، فلخصها فيما يلي: عهد علي تحويلها من دولة زراعية تعتمد على إنتاج وتصدير المواد الأولية مثل القصدير والمطاط إلى دولة صناعية متقدمة يساهم قطاع الصناعة والخدمات بنحو ٩٠٪ من الناتج المحلي.

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن انخفضت نسبة الفقر من ٥٢٪ إلى ٥٪ في عام ٢٠٠٢ وارتفع متوسط دخل الفرد من ١٢٠٠ دولار سنويًا إلى ٩٠٠٠ دولار سنويًا ثم انخفضت نسبة البطالة إلى ٣٪.

وعن السياسة التي تبناها مهاتير محمد لتصبح ماليزيا البنية المثالية لأفضل الاستثمارات في جنوب آسيا فقد ظهر التعليم والبحث العلمي على خارطة طريقه كهدف أساسي، وبالتالي خصص أكبر قسم من ميزانية الدولة للتعليم والبحث العلمي والتدريب وتأهيل الحرفيين ومحو الأمية وتعلم الإنجليزية، كما أرسل عشرات الآلاف من الباحثيين للدراسة في أفضل جامعات العالم، ثم أعلن للشعب بكل شفافية خطته الإستراتيجية وأطلعهم على النظام المحاسبي الجديد الذي يحكمه مبدأ الثواب والعقاب للوصول إلى ما يُعرف الآن بالنهضة الشاملة، فسانده الشعب وناصره وبدؤوا بقطاع الزراعة فغرسوا مليون شتلة نخيل زيت في أول عامين فقط لتصبح ماليزيا أول دولة في العالم في إنتاج وتصدير زيت النخيل.

وفي قطاع السياحة فقد حول كل معسكرات اليابانيين التي كانت موجودة خلال الحرب العالمية الثانية إلى مزارات سياحية لتشمل جميع الأنشطة الترفيهية والمدن الرياضية والمراكز الثقافية والفنية، لتصبح ماليزيا مركزًا عالميًا للسباقات الدولية في السيارات والخيول والألعاب المائية والعلاج الطبيعي وغيرها ليصبح العائد من السياحة ٣٣ مليار دولار سنويًا بدلًا من ٩٠ ألف دولار سنويًا خلال ٢٠ عامًا فقط.

كما أنشأ واحدة من أكبر الجامعات الإسلامية في العالم لتصبح ضمن أهم ٥٠٠ جامعة عالميًا. وأنشأ عاصمة إدارية جديدة بجانب العاصمة الإدارية التي كان يقطنها قرابة ٢ مليون نسمة.

تمكن مهاتير محمد أن يغير حاضر ومستقبل دولته خلال ٢٠ عامًا فقط لتصبح من الدول التي شار إليها بالبنان.

وقد رأى خالد تأثير ونتاج ما فعله مهاتير محمد بعد التسجيل في الجامعة، فقد تبين له أنه قد حاز نصيبًا من كل ما لذ وطاب، سكن فندقي خاص به ينسيه السكن المشترك الذي عانى منه طوال ثلاث سنوات، ووجبات بالمجان في الصباح والمساء، بل ومرتب شهري يدخل جيبه فلا يخرج إلا إن انتزعه هو بالغصب لشراء بعض الكماليات.

استكمل الشاب الطموح كسير الفؤاد دراسته وحاز الكثير من إعجاب الأساتذة والمحاضرين، وفي الفترة التي كان يكتب فيها بحث التخرج الذي لم يكن صعبًا بقدر ما كان يستعصي عليه إيجاد الوقت لكتابته، ذلك لأنه كان قد بدأ منذ عدة أشهر الشروع في العمل على مشروعه الخاص هو

واثنان من رفاقه المقربين، وهم: عبد القادر الماليزي وتولجا المنغولي، ذلك المشروع الذي أسموه "M٣" لأنه عبارة عن شركة لإدارة الأعمال تتضمن ثلاثة فروع في كل من مصر وماليزيا ومنغوليا! وكما كان الثلاثي يشجعون بعضهم البعض على بدء المشروع، كانوا بكل تأكيد يستحثون أنفسهم على إنهاء الأبحاث، التي كانت على صلات كبيرة بما سيقومون به في المستقبل وما تتضمن الشركة من أعمال وبرامج من شأنها أن ترفع المستوى الإقتصادي وتعزز الصلة بين البلدان الثلاث، فكان بحث التخرج الخاص بخالد عن مقارنة التجارب الاقتصادية الحديثة والأسس الإدارية التي اعتمدت عليها بين ماليزيا والوطن العربي، فنال بها مرتبة الشرف وفرصة أخرى لاستكمال الدكتوراة بنفس الجامعة لكن بامتيازات أكبر، فيبدو أن أيامه السعيدة قد بدأت، وها هو ينهل من متاع العلم الذي أحبه دائمًا، أما صديقاه فقررا التركيز على المشروع أكثر، وهو بدوره قد سجل في الدكتوراة وزاد عليه حمل العمل في الشركة.

خاصة وأن التجربة الأولي للشركة تبدأ من مصر حيث أنها أكبر الأسواق الثلاث، لكن وقبل البدء في دراسة الدكتوراة، قرر خالد العودة إلى مصر في عطلة سريعة مفاجئة، نظرًا لشوقه الدائم لوالديه وإخوته وكل أصدقائه، لكن هذه المرة كان مصطحبًا معه صديقاه المقربان وشريكاه الأمينان، عاد بعلمٍ وفيرٍ ومالٍ كثير وطموح لا تحده أركان ولا يتغير بكلام الناس، ففرح الكلُ بقدومه وفرح هو بنفسه كونه وُفق لأن يصبح نصف دكتور في مجاله.

فعاد الثلاثي إلى مصر ليتعرفوا على عائلة خالد وليبدؤوا مشروعهم على أرض الواقع، فمصر التي قد شارف تعداد سكانها على ٨٠ نسمة آنذاك،

هو رقم لم يعهده تولجا أبدًا، حيث أنه يأتي من مكان لا يتعدى ساكنيه الألف نسمة في كل ٢٠٠ فدان تقريبًا، خاصة وأن مصر بتاريخها العريق يخيل للمستمع الذي لم يطأها مسبقًا أنها صحراء لا يسكنها أحد من الأحياء، ولا تحوي شيئًا سوى المعابد والمسلات الفرعونية وآثار الآوائل المختلفة التي تتحدث عنها كتب التاريخ بمختلف اللغات، استفاق عبد القادر وتولجا من صدمة التواجد في مكان غير الذي كانا قد رسماه في مخيلتهما، ولما رأت أم خالد من اندهاش الشابان، أصرت على خالد أن ينتظر بضعة أشهر وألا يشرع في استئجار المكان وفتح الشركة إلا بعد أن يتمكن أصحابه من دراسة السوق، تفاديا أن يفعل ذلك وأصدقائه ما زالوا لم يتأقلموا، وتجنبًا لأن يتعرض أي منهم للخسارة، قائلة له: تذكر أنه في التأني السلامة، وأنتم ما زلتم شبابًا يافعين فلا تتسرعوا.

وعد خالد والدته ألا يبدؤوا في المشروع إلا بعد أن يتأكد لدى كل منهم نية صادقة في البدء. وما هي إلا ٧٠ يومًا تقريبًا بين دراسة السوق والترحال بين مدن وميادين مصر المختلفة بغرض السياحة وغيرها، إلا وتلوح بشائر ثورة ٢٥ يناير في الأفق، حينها فقط تأكد لدى كل منهم أن أم خالد بكلماتها التي تعين على التحلي بالصبر كانت هدية من السماء، فأيقن الثلاثة أن مصر لن تصبح ذلك السوق الخصب لما هم مقدمون على فعله إلا بعد أن يتعين رئيس جديد، وإلى أن يحين ذلك فيجب عليهم التريث والبحث عن سوق آخر، وهذا فكر كل رجال الأعمال مهما اختلفت جنسياتهم وانتماءاتهم، وهم ثلاثة خبراء في هذا المجال، يعلمون جيدًا متى يحين وقت الصيد،

ومتى يجب عليهم أن يتبعوا الأوامر والعلامات الخفية تفاديًا لحال أهل السبت.

تجمع إخوة خالد الذين قد تزوجوا في أماكن متفرقة لتوديعه ولحضور المأدبة التي أعدها لأهله وأصدقائه وجيرانه قبل السفر، فكانت دعاء ممن حضروا المأدبة لأنها تزامنت مع ميعاد زيارتها لأهلها، وحينما وصلت همت بالسلام عليه قائلة: أنقول حمدًا لله على سلامتك أم إلى اللقاء؟ فرد قائلًا: أي منها ستفي بالغرض يا دكتورة.

فمدت يدها قائلة: كيف حالك؟ لم أسمع كلمة دكتورة هذه منذ زمن.

فقال: الحمد لله بخير ! عذرًا، لكني لا أصافح النساء.

فردت مستاءة على عجل: لك ما تشاء، سأذهب لأسلم على بقية الحضور، سلام!

هو على علمٍ تام أنه يصافح النساء ويلاقيهن بالأحضان أحيانًا طبقًا للبلاد التي يأتين منها واختلاف طرق الترحيب بها، لكنه بحياته كلها يمكن أن يصافح أي امرأة كانت إلا تلك. وذلك لأنه لا يريد أن يزيد من حرقة ما بقلبه كما لا يريد أن يستعيد أيًا مما مضى، فكما يقول علماء النفس أن لتلاقي الأيدي تأثيرًا لا يمكن الاستهانة به، فهو يعزز العلاقة ويزيد المشاعر، وآخر ما يرغب به هو أن يعزز تلك العلاقة معها، فهو لم يستطع رغم كل تلك السنوات من البعد والمسافات أن ينسى النظرات أو يتعامل مع المواقف التي كانت، فهل له أن يعالج لمسات وضحكات؟

بالتأكيد كان الشبان الثلاثة على درجة عالية من التردد في استكمال المشروع، لكن تولجا قد أصر على الذهاب لمنغوليا الداخلية بصحبة أصدقائه ليعرفهم على شكل السوق المستقر مضمون الربح.

فكان خالد ينظر للحشود وألسنة اللهب والدخان التي تتصاعد من ميادين القاهرة المختلفة جراء التظاهرات من شباك الطائرة مرددًا جملة صدحت في رأسه دون أي تدبر أو تنظيم، فكان يقول: الجيل دا جيل البهدلة...انفد بجلدك يا وله، دا إن عرفت! ويبدو أنه قد تمكن من ذلك محافظًا على أمواله، لكنه كان دائمًا يعاتب نفسه على عدم القدرة على المشاركة في حدث جلل مثل هذا، ربما لأنه كان بين صحبة مسؤولة منه وهو مسؤول عنها، كما رأى ما رأى من تشابه بين الثورة المصرية والثورة الصينية وكم الوقت التي احتاجته الصين لتتمالك نفسها وتبدأ في التشييد والبناء.

لكنه لم ينس قبل مغادرته أن يزور الأسطى غالي، شاكرًا له كلماته وإعلامه بأنه قد كان الحافز الأول لشاب لم يكن يعرف أين الطريق منذ ما يزيد عن ٦ سنوات، وفي محاولة لرد الجميل، عرض على الأسطى غالي أن يساعد أبنائه في الحصول على منح دراسية من أساتذته أو التقديم لهم في الجامعة التي يدرس بها، فطار الرجل فرحًا وظل يقبل خالد كما لم يفعل مع أيًا من أبنائه من قبل، فها هو بعض من رد الجميل وشكر حسن صنيع الناس، فحتى عطاء الكلمات يأتي بمقابل غير متوقع، فما بالنا بعطاء الأفعال وتغيير حياة البعض.

كما أنه وفي أحد الأيام التي كان يتسامر فيها مع أمه، مستمعًا ومستمتعًا بكل تلك القصص والأحداث التي دارت خلال فترة غيابه، تطرقت والدته بالحديث إلى الجيران وما آل إليه حال كل منهم، فعرف أن بعضهم يحتاج إلى المساعدات المادية، أو ربما لبعض الزيارات نظرًا لموت أحبتهم، وفجأة ذكرت والدته محبوبته السابقة، فعلم أن معشوقة صباه قد تزوجت ابن خالتها الذي كان يدرس التجارة، فراودته نفسه قائلةً: لو أنها تفضلت علي وقتها بمعدلها الدراسي الذي أصبحت به الدكتورة فيما بعد، فأنّى لها أن تقبل بشخص أقل منها معدلًا ولقبًا، أليس هذا ما تؤمن به هي؟ لكنه تذكر كلماتها يوم أن كانا في الحافلة سويًا وتأكد ذلك لديه لما استشف من حديث والدته أن أُمها هي من رتبت ذلك لكسب وُد أختها، لكن ما حدث بعد ذلك كان صادمًا، فالدكتورة دعاء قد مُنعت من مزاولة عملها وذلك لعقدة أنها أعلى من زوجها أجرًا ومقامًا في المجتمع، فقد أصبحت لدى زوجها عُقدة من وجود ومسمى الدكتورة، في حين أنه الباشمحاسب الذي يصرف من مال أبيه فقط ولا يرغب في العمل الحكومي. فتحطمت آمال الدكتورة حينما أجبرت على نسيان كل تلك السنوات التي عانتها في الدراسة أملًا في الحصول على اللقب، لكن كيف لزوج بهذه العادات الاجتماعية أن يفهم معنى الخسارة، فخسارته الوحيدة أن يرى زوجته أفضل منه، فما انفك الاندهاش أن يغادر ملامحه، لكنه كان يستقوى على ذلك الاندهاش بالتدبر في الحكمة من الإجازة والمكاسب التي حققها وأراح بها سريرته، فتدبر النعم وتعدادها يغني ويمحي كل لوم على إضاعة الوقت أو إنكار للتوفيق. بل إنه يورث الرضى والتفاؤل، وهو الأمر الذي

يجب أن نتحلى به جميعًا ليتجاوز كل منّا مشاكله بصورة الناجي لا بهيئة الضحية.

فذهب ثلاثتهم إلى منغوليا الداخلية التي تتبع للصين، والتي هي بدورها جارة لدولة منغوليا التي هي معقل جنكيز خان وأحفاده.

لكن وخلال رحلة الطيران المضنية تلك، والتي تزيد ساعاتها عن العشر ساعات، دار حديثًا بين عبد القادر وخالد، بدأه عبد القادر قائلًا: أتعلم يا خالد أن والدي أستاذ الأدب دائمًا ما يقول أننا نحن أبناء الشرق نتناقض فيما بيننا ونحاول الاستعانة بشتى المفردات التي من شأنها أن تخدم الموقف لصالحنا وتجعلنا نظهر أمام أنفسنا أو أمام المُتلقي على أننا مُثقفون حتى وإن لم نكن، لكننا نصر بكل الطرق على أن نظهر أنفسنا كأصحاب الباع الطويل في المناقشات والتحاور، فإن أمعنت النظر في سلوكيات المجتمع المصري وطريقة عيشه ومحاولة كسبه للمواقف ستُصاب بالدهشة والذهول، لأننا نحن الماليزيون على قدر كبير من هذا التناقض أيضًا.

قال خالد: وما الذي لاحظته خلال تلك الأيام في المجتمع المصري يا عبد القادر؟

رد عبد القادر قائلاً: لاحظت يا صديقي أن الشعب المصري شعبٌ مُسالم يُحب الكلام والفضفضة وكسب الصداقات ومُساعدة المحتاج حتى مع ما بهم من ضيق حال، وهذا يظهر المعدن الطيب والعنصر الرئيسي في تكوين هذا المجتمع، كما أنهم يحبون الغناء والرقص والاستمتاع بالحياة

حتى وإن كان على ذلك ضوابط دينية، ولا أقول ذلك لأنني مجرد عابر، فقد درسنا كثيرًا عن مصر وتكوينها ونهضتها التاريخية والحضارية ككل شعوب العالم الأُخرى.

فحتى وإن تغير الحال فى بعض الأوقات من سوء المعيشة وتدهور الأوضاع الاقتصادية والسياسية تظل روح الفكاهة والتدين هى المسيطرة على المجتمعين المصري والماليزي، لكننا على الوجه الآخر نتناقض في تصرفاتنا وسلوكياتنا فى كثيرٍ من الأحيان، وربما يرجع ذلك إلى ثقافتنا المليئة بالمتناقضات والتي اكتسبناها من أفواه الناس دون التدبر والوقوف على أصلها واستخداماتها السوية.

يبدو أنك قد حللت المجتمع ووقفت على عيوبه أيضًا خلال تلك الفترة القصيرة يا عبد القادر. -زدني يا صديقي، فالأمر مشوق والرحلة طويلة، قال خالد.

قال عبد القادر: أنا لم أكن أحلل السلوكيات في البداية، لكن الزائر دائمًا ما يقارن ما يرى بما تعود، وأيقنت ذلك لما سمعت بعض المصطلحات والأمثال الشعبية التي سألتك عن ترجمتها مسبقـًا، أتذكر؟ قال خالد: نعم أذكر بكل تأكيد.

فقال عبد القادر: إن تلك المصطلحات والأمثال هى جزءٌ أصيل في الثقافة المصرية على ما يبدو، لأن الناس يفضلون الاستدلال ببعضها في مختلف المواقف، وذلك بغرض اختصار موضوع كبير في عدة كلمات ربما، أو لإيضاح موقف مُعين ببساطة، أو حتى للظهور بزي المُطلع والواعي في

بعض الأحيان، وإن كان جزءً كبيرًا منها يتشابه مع المصطلحات الماليزية والحكم الشعبية إلا أنني شخصيًا لا أعرف كيف أستدل ببعضها في حياتي، لأنها تتناقض لأقصى درجة في محتواها، والغرض المقصود منها، ومن هذه الأمثال على سبيل المثال لا الحصر:

لما قالت لك والدتك حين ساعدت أبناء الأسطى غالي: اعمل الخير وارميه البحر.

لكنها لما كُسِر الطبق الذي كانت تقدم فيه الماء لعابر السبيل قالت: خيرًا تعمل شرًا تلقى.

ولما اضطررنا لاستقلال القطار من القاهرة لأسوان ورأتنا بائعة التذاكر فقالت سأجلسكم في أماكن للأجانب فقط، أكثر راحة وأمانًا. فقلت أنت لها، لا يهم يا آنسة، فكلنا أولاد تسعة.

لكنها ردت بقولها: لكن الناس مقامات.

لما قال بائع التحف في الأقصر على التمثال المكسور أنه يمكن أن يعيده لبهائه ببعض الترميم مستدلًا بالقول: لَبس البُوصة تبقى عروسة.

لكن لما هم أحدهم أن يبيعه ورقة الباردي التي قُطع طرفها وطلب منه تعديلها وإعادة بيعها قال: ايش تعمل الماشطة في الوش العِكر.

ولما طلب تولجا من أختك أن تبحث له عن عروسة مصرية رحبت جدًا وقالت: يا بخت من وفَق راسين في الحلال.

لكن لما صارحها تولجا أنه مرتبط والأمر لا يتعدى المزاح، قال له: أفضل فالمثل يقول إمشي فى جنازة ولا تمشي فى جوازة.

حتى أنت يا خالد لما هممنا نؤجر المكان الذي سنفتتح به الشركة وكان الإيجار عاليًا جدًا في نظري قلت لي: لا تقلق يا صديقي، اصرف ما في الجيب يأتيك ما فى الغيب.

لكننا لما رحنا نبتاع الكثير من الحلوى والحمص في طنطا، قلت لنا من الأفضل أن نقتصد قليلاً، واستشهدت بأن "القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود".

فرد خالد: ما هذا الجمال والقدرة على تفنيد الكلمات يا عبد القادر! أنا سعيد جدًا أن لي صديق مثلك، يحسن التدبر ودراسة الكلمات، بل ويربطها بالواقع العام.

فقال عبد القادر: لقد حدث ما حدث لأن التشابه بين مجتمعينا كبير جدًا رغم بعد المسافات. لكن هل لاحظت أنت شيئًا من التناقض في أقوال المجتمع المصري يمكن أن نقارنها بالمجتمع الماليزي يا خالد؟

فأجاب خالد: بكل تأكيد، فالأمر لا يقتصر على هذا الكم يا عبد القادر.

فنحن نقول عند تعدد الأحداث والمصائب: ياما دقت على الراس طبول.

لكن لو أننا محبطين ولا نقوى على الصبر نقول: خبطتين في الراس توجع.

لو أننا نفعل شيئًا ونحتاج إلى أخصائي فنقول: إدى العيش لخبازه.

لكن لو فشل فعلنا لشيء نتقنه لقلنا: اسأل مجرب ولا تسأل طبيب/ باب النجار مخلع.

في الأمور الدينية ولحث الناس على الشجاعة نقول: النار لا تحرق مؤمنًا.

فقال عبد القادر مبتسمًا: وإن أُصيب الرجل يا خالد؟ فرد خالد مبتسمًا: حينها نقول أن المؤمن مصاب.

عند توزيع الطعام أو المغانم نقول: الغايب ليس له نايب.

وهذا المثل نقيضه: الغايب حجته معاه.

إن أردنا أن نفعل شيئًا على عجل نقول خير البر عاجله/ حلوتها في حموتها.

لكن إن أردنا التقاعس قلنا: كل تأخيرة وفيها خيرة، والعجلة من الشيطان.

أما في العلاقات فنقول: ابعد حبة تزيد محبة.

والنقيض لهذا المثل: البعيد عن العين بعيد عن القلب، وأنا أعلم حرفيًا أن هذا المثل لا يعمل به!

وفي الحب يقولون: إن عشقت اعشق قمر وإن سرقت اسرق جَمل، وكأن الإنسان يختار من يتودد قلبه إليه! لكننا في الحقيقة لا نحب حين نختار ولا نختار حين نحب، الأمر كله خفي بين القلوب.

ونقيض ذلك: الطمع يقل ما جمع.

في الخوف نقول : من خاف سِلِم، والجبان يربي عياله.

والنقيض لذلك قول الناس: ويفوز باللذات كُلُ مُغامرٍ.

أما عن بعض العادات المتناقضة يا عبد القادر فمنها على سبيل المثال أيضًا لا الحصر أن:

المصريون الذين أنا منهم يُمجدون الجيش ويتفاخرون به في كل كلامهم، لكن عندما يتوجب على أبنائهم الانضمام للجيش لا يقبلون أبدًا بهذه الفكرة، ثم لا يلبثون يبحثون عن واسطة حتى وإن وصلت للرشوة لإعفائهم من التجنيد، والحيل في ذلك كثيرة!

-لا يُحبون الأجانب ويتحدثون عنهم بسخرية واستخفاف، لكنهم يتمنون الحصول على جنسياتهم، ويريدون أن يعيشوا في بلادهم العادلة الجميلة ذات الدخل المريح والحياة الصحية النظيفة.

-نعيش نحن المصريون في أقدم دولة في التاريخ، لكننا وبكل أسف لا نعرف سوى ما قدره ٢٪ عن تاريخنا أو حضاراتنا القديمة، كما أننا لا نتحدث لغتنا الأم ولا نفهمها (الهيروغليفية)، نحن أكبر بلد سياحي بالعالم كما تعلم يا عبد القادر، لكن أقصى الأماكن التي ذهبنا إليها في صغرنا كانت المصيف والرحلات المدرسية، كما أن السياحة الداخلية تكاد تكون معدومة.

-لا يحبون المشاهير ولا يريدون لأبنائهم أن يكونوا مثل المطربين أو الممثلين ويصفونهم بالفَسقة، لكنهم يُقلدونهم في طريقة الملبس والكلام، وأحيانًا في التصرفات، ويضيعون أوقاتهم في مشاهدتهم، كما يدفعون الأموال أحيانًا لحضور حفلاتهم ومشاهدة مبارياتهم، حتى أن الأمر يصل إلى الخصام والخلاف أحيانًا بسبب اختلاف النوادي والنجوم.

-لا يحبون التبذير أو الإسراف، لكن في رمضان الذي هو شهر الصيام والاقتصاد، لا يكتفون بطهي نوعٍ واحدٍ أو نوعين من الطعام يوميًا، فيجب أن تُزين السُفرة بكل ما لذ وطاب.

-لا يريدون لأبنائهم الذكور دفع الكثير من المهر أو المغالاة في الزواج، كما يكرهون عائلة العروس التي تغالي في الزواج على حد وصفهم، لكنهم لا يرحمون عريسًا جاء لخطبة بنت من بناتهم في التكاليف والأعياد أو حتى المناسبات الصغيرة، بحكم العرف وأن الآخرين ليسوا أفضل منها.

-إن الشاب المِصرى يتباهى بين أقرانه بعلاقاته المتعددة قبل الزواج، لكن عند الزواج يبحث عن فتاة لم يتحدث أحدٌ إليها من قبل، وليس لها ماضٍ (وكأنها كانت تعيش في قوقعة). من الممكن أيضًا أن يكون في علاقة مع أكثر من فتاة في نفس الوقت، ولكنه لا ينظر لنفسه إلا بمنظر الشهم أو الجدع.

-يقدرون الحُب والارتباط ويتواعدون بالزواج، وتنهار الدنيا إن تفارقا، لكن يمكن أن ينفصلا من أجل بعض الأكواب أو الشيء الذي ليس له قيمة والمدعو بالنيش.

-أهلها هذه البلد متدينون جدًا، سواءً كانوا مُسلمين أو مَسيحين، ولا يقبلون على أخواتهم أو بناتهم أن تتم معاكستهم في الطرقات أو أن يكون لهن أصدقاء من الذكور، في حين أنهم يُحبون مُصادقة الفتيات ومُعاكستهن في الطرقات وعلى صفحات الإنترنت.

نظهر أننا جميعًا نجابه التحرُش ونرفضه بكل ما أوتينا من قوة، ومع ذلك فما زلنا من أعلى الدُول في معدل التحرش، وكأن المتحرشين ليسوا منا، أو أننا نستوردهم من دول أخرى!!.

-لا نحب دفع التِبس (البقشيش) لاعتبارنا أن العامل يتقاضى أجرًا كافيًا على عمله، في حين أننا كعُمال أو مُوظفين نحب قبول البقشيش والهدايا نظرًا لضعف الأجور، وأحيانًا يطلبونه البعض تحت مسمى (الشاي) أو (الدُخان) في بعض المِهن، وفي نظرهم هو طريقة لإظهار التقدير ورفع الروح المعنوية.

إن المجتمع المصري يا عبد القادر هو مجتمع مليء بالمتناقضات التي أحيانًا ما تصبح عادات اجتماعية ومُسَلَمات دينية لا يُقبل التشكيك فيها، كقولِك لأحدُهم (اجر يا ابن أدم جري الوحوش، غير رزقك لن تحوش) تلك الكلمات وغيرها من الممكن أن تبعث في نفس المتلقي التكاسل وعدم الحث على الاجتهاد، فقد أيقن أنه لن يحقق أي نجاح إن لم يكتب له ذلك، معتمدًا على بضع كلمات، فللكلمات تأثير رهيب على النفس البشرية. كل هذه الأمثال وغيرها من العادات الاجتماعية ما هي إلا لتوفير المصالح وتحقيق أكبر استفادة ممكنة من كل موقف، وهذا ما يجعل المواطن المصرى تحت طائلة المُراوغ أو بالبلدى (الفَهلوي).

من المؤكد أن لكل قاعدة شذوذ، ولسنا كُلنا بتِلك الطِباع، لكن هذه طباعُ الجزء الأكبر منا، وهي صور لا يمكن أن نُلغيها أو نتجاهلها، وذلك لسهولة إدراكها في مجتمعاتنا وتأثيرها علينا بشكلٍ أو بآخر.

لكم أتمنى أن لا تسيطر تِلك الأمثال وغيرها من العادات المُتعارف عليها والدخيلة على مجتمعنا على الأطفال أو الأجيال القادمة، أو على الأقل محاولة تطبيقها في الأطوار التي جاءت فيها، وذلك بغرض إحداث تغيير اجتماعي وخَلق عادات سويَة تُصلح جيلًا أو تَبني مُجتمعًا مُستويًا بعيدًا عن الفَهلوة أو فكرة مُحاولة كسب المواقف، وأخيرًا فالأمر لن يكون بهذه السهولة لأن الزمخشري قد قال بنفسه أنه لا يعلم إن كان المثل قد أتى أولًا ثم ظهرت قصته، أو كانت القصة أولًا ثم جاء المثل!.

فأجاب عبد القادر متعجبًا بعينين جاحظتين وحاجبين للأعلى بعد ما سمع قائلًا: كفاك يا صديقي، والله أشهد أن معظم ما ذكرت موجود بهيئته في المجتمعات الآسياوية.

-إذًا فما سبب هذا الإندهاش الذي لا يكاد يبارح وجهك يا عبد القادر؟، سأل خالد.

فرد عبد القادر: إن الاندهاش من كم التحليل الذي قمت به في وقت وجيز يا صديقي، يبدو وكأنك تحفظ هذا عن ظهر قلب.

فأجاب خالد ضاحكًا: أنا لا أحفظ هذا إطلاقًا، لكنني تعودت التدبر في كلام الناس وأفعالهم بعد أن مررت ببعض الأحداث في صغري، وهذا يوفر علي الكثير من العناء في التعامل مع الناس، لكن وبحكم أنني منهم وهم مني، فما أزال أتعامل ببعض تلك العادات على المستوى الشخصي، متعمدًا أحيانًا لإيضاح أنني جزء لا أتجزأ من هذا المجتمع، ومجبرًا أحيانًا أخرى عندما يخونني تعبير اللسان كما حدث في موقف الحلوى.

هذا رائع حقًا، يمكنك أن تؤلف كتابًا عن هذا يا خالد، قال عبد القادر.

خالد: ولم لا يا صديقي، لنؤلفه سويًا، لكن قبل ذلك علينا أن نقف على الاستخدامات السوية لكل تلك الأمثال وأصولها وإيضاح المراد منها للقارئ أولًا لتكون صفحات هادفة، لا يرجى منها الكسب المادي لا أكثر كما يفعل البعض.

-أحسنت يا خالد، هذا هو المهم فعلًا، لننم قليلًا قبل الهبوط ولنكمل حديثنا الشيق هذا فيما بعد، فأمامنا طريق طويل بين قمم جبال منغوليا ووديانها الشاسعة، قال عبد القادر.

فرد خالد: حسنًا يا صديقي، لننل قسطًا من الراحة إذًا!

بعد عدة ساعات ترجل الثلاثة من الطائرة الصغيرة التي أقلتهم من العاصمة الصينية بكين إلى مطار هوهوت بمنغوليا الداخلية، ولصغر حجم المطار وقلة المسافرين فقد أنهوا إجراءات الوصول سريعًا ليخرج ثلاثتهم لنسيم الهواء العليل، لكن خالد قد نسي أمر الهواء العليل بعد عدة أنفاس لما رأى صاحبة الوجه الحسن التي أشارت لتولجا وعانقته بحرارة، فراح خالد على عجل يسأل تولجا قائلًا: من هذه يا تولجا؟ فعلى حد علمي أنت لست زوجًا لأحد بعد.

قال تولجا: هذه أختي الصغري، ألتان.

كانت ألتان تشبه فتيات المغول اللاتي يتم ذكرهن في الروايات التي نقلت أخبار ومعارك جنكيز خان، كما أنها لم تكن تشبه تولجا بصورة كبيرة، فتولجا شاب متسوط الطول، قمحي البشرة عيناه تشبه على الأكثر قومية

الهان الصينية، لكن ألتان كانت فارعة الطويل عريضة المنكبين، بياضها لا يوحي بأية صورة أنها من المغول، لكن هيئتها وحذائها طويل العنق وبنطال الخيالة الذي ترتديه، تشرح كل شيء حتى قبل أن تسألها عن مكان نشأتها، أنست بجمالها الهواء العليل، وتعب السفر الطويل، فظل يسير خلفها كما لو أنه ضاع من أمه في السوق وقد عاد إليها منذ لحظات.

فقال خالد لتولجا: ألن تعرفنا عليها يا رجل! قبل أن يطول الوقت وتزداد غبطة الكسوف والخجل.

فقال عبد القادر: أي وقت سيطول يا خالد، لقد مر على وجودنا هنا ثلاث دقائق.

فقال تولجا: لا داع للصياح يا شباب، فعاجلًا أو آجلًا ستتعرفون بشكل أكبر، فهي رفيقة رحلتنا وسائقنا الخاص حتى نصل لوجهتنا

فصاح خالد قائلًا: الآن تبدأ الرحلة.

بعد نقل المتاع إلى السيارة والانطلاق بها لعدة أمتار لا تتجاوز المائة، قال خالد: وهل تتحدث أختك الإنجليزية يا تولجا؟

فرد تولجا قائلًا: اسألها بنفسك يا صديقي.

فقال خالد: هل تتحدثين الإنجليزية يا آنسة ألتان؟

فرد ألتان بكل عفوية: نعم بكل تأكيد، يبدو أنك ذكي، فقد خمنت أني آنسة.

فقال خالد فرحًا: الحمد لله أنكِ تتحدثين الإنجليزية، وفي نفسه يقول: والحمد لله أكثر على كونك آنسة.

فقال عبد القادر لخالد: هدء من حماستك يا صديقي سينكشف أمرك.

فقال خالد: والله ما هذا بمغازلة يا عبد القادر، وإنما انبهار بحسنها وبعفويتها، فقليلًا ما تجد مثلها فتيات هذه الأيام.

ثم قال عبد القادر: يبدو أن لغتك الإنجليزية قوية يا ألتان، فأين تعلمتيها؟

قالت ألتان: في الحقيقة مجال عملي يحتم على التواصل بالإنجليزية، كما أن دراستي تعتمد اعتمادًا أساسيًا عليها.

فقال خالد: وهل العمل في السياحة هنا يتطلب لغة إنجليزية قوية؟

فرد تولجا ضاحكًا: أتعتقد أنها تعمل في الإرشاد السياحي لأنها أتت لتقلنا يا خالد؟

فقال خالد: أليس هذا ما ذكرته أنت يا صديقي؟ أنت قلت أنها رفيقة رحلتنا!

فرد تولجا: هي رفيقة رحلتنا لأنها أختي وليس لأنها تعمل في هذا المجال، وعلى كل حال فهي طبيبة الإقليم الذي نعيش فيه.

فقال خالد متعجبًا: طبيبة! لا داع للانبهار إذًا.

فقالت ألتان: أي انبهار؟

-أنا مبهور منذ وصولي بهيئتك وعفويتك وحديثك المرتب، ثم الآن أكتشف أنك طبيبة، يبدو أننا سعيدي الحظ لنحظى بوجودك معنا يا دكتورة، قال خالد، ومن ثم أتبعه عبد القادر قائلًا: نحن الآن في مأمن إن تعرضنا لأذى الطبيعة إذًا.

فردت ألتان: إن الشرف الكامل لي في مرافقتكم، كما أنه من الجميل قضاء الوقت مع أناس مثقفين في هذه الطبيعة الخلابة لنكتشف بعضًا من أسرارها سويًا، والأهم من ذلك أنكم من يتكفل بمصاريف الرحلة.

-كل النساء سواء مهما اختلف المكان، قال عبد القادر مازحًا، وهنا نظر خالد من النافذة ليلحظ المنظر الخلاب الذي ينسي التعب آهات الألم وينقله إلى عالم آخر، تلك الجبال الشاهقة بلونها الرصاصي الذي يخيل للناظر أنها جبال أسمنتية وليست جبالًا حجرية، على قممها بعض البنايات البسيطة التي تظهر كل بضعة مئات من الأمتار، وطريق طويل ممهد في المنتصف، وسماء زرقاء بزرقة عيون أطفال أوروبا حديثي الولادة، وقبل أن ينهي تأمله في الجمال المحيط، بادره عبد القادر قائلًا: ألا يذكرك لون السماء الأزرق هذا بلون المحيط يا خالد؟

فأجاب خالد: نعم! في الحقيقة يذكرني بانعكاس السماء على سطح مياه المحيط يا عبد القادر، ذلك لأن اللون الأزرق الذي تراه في الماء ما هو إلا انعكاس السماء، فالأزرق ليس لونًا كباقي الألوان، وعادة ما يكون الماء النقي صافيًا، ولكن إذا كان عميقًا بما فيه الكفاية، فإن الضوء لن يكون قادرًا على الانعكاس على قاع البحر، مما يجعل الماء يبدو بلون أزرق داكن، وهذا يعود إلى حد كبير إلى بعض القواعد الفيزيائية الأساسية.

فتحتوي العين البشرية على خلايا قادرة على الكشف عن الإشعاع الكهرومغناطيسي الذي تتراوح أطوال موجاته ما بين حوالي الـ٣٨٠ و٧٠٠ نانومتر، وفي هذا النطاق، فإن الأطوال الموجية المختلفة ترتبط بالألوان

المختلفة التي نراها في قوس قزح، فالأزرق أندر وأغلى لون في العالم، كما أنه سر مصري قديم، اكتشفه قدماء المصريين من ٨٧٠٠ سنة تقريبًا واعتبروه رمز اللانهاية، فهو نتيجة تركيبات كيميائية قديمة كالأبيض والبناء الضوئي، كما أنه لون وهمي، ليس له أصل عضوي، وندرته تلك جعلت منه رمزًا للثقة والبهاء والجلال والنقاء عند المصريين القدماء.

فتلاحظه على سبيل المثال في تكوين القناع الذهبي للملك توت عنخ آمون، وفي عام ٤٣١م أقرت الكنيسة الكاثوليكية اللون الأزرق كلون لاهوتي، ذلك لأن وشاح السيدة العذراء كان باللون الأزرق في لوحات القديسيين، ولا يمكن أن ننكر أن الفنانين الكبار قد عانوا كثيرًا للحصول على هذا اللون واستخدامه في لوحاتهم، فالفنان الهولندي يوهانس فيرمير، قد رهن بيته ليشتري اللون الأزرق ويستخدمه في لوحته"ذات القرط اللؤلؤي"

كما أن الأسرة الحاكمة في بريطانيا قد استخدمت اللون الأزرق لتميز به الوظائف الملكية، ويعرفون سلالتهم بذوي الدم الأزرق، وكما هو معلوم لدى الجميع فإن أمريكا قد استخدمته بعد الحرب العالمية الثانية لتمييز الذكور من الإناث.

فبادرت ألتان قائلة بعفوية طفلة في السادسة: نعم نعم، أنا أعرف المعلومة الأخيرة التي تخص تحديد الجنس كوني طبيبة، لكني لم أكن أعرف ما سبق عن اللون الأزرق يا خالد، رغم أننا نراه كل يوم في سمائنا ومائنا، أحسنت يا خالد!.

-نعم ويثبت كلام خالد أن من خواص الماء أنه لا طعم له ولا لون ولا رائحة، قال عبد القادر.

لكن تولجا قد التفت إلى خالد قائلًا: من أين لك هذه المعلومات يا رجل؟ أتقرأ شيئًا لا نقرَؤه؟

فأجاب خالد ضاحكًا: لدينا مثل يقول "خذ شيئًا من كل شيء ولا تأخد كل شيء من شيء يا صديقي".. فأنا أقرأ أحيانًا في مجالات عدة بغرض التعلم واكتساب المعرفة وكبح جماح الفضول، ثم إن الأمر مرتبط أكثر بالصحبة التي أنت معها، وثلاثتنا لا نتحدث سوى عن المال والأعمال ودراسات الجدوى والأرباح وغيرها من أمور التخصص لا أكثر.

-حسنًا! سوف لن نتحدث عن التخصص مفردًا بعد ذلك يا خالد.

فأعقبه خالد قائلًا: ولم فيما بعد يا صديقي، لنبدأ الآن!

-الآن؟ وعن ماذا نتحدث الآن؟، قال تولجا.

فقال عبد القادر: هو يقصد أن تخبرنا شيئًا لا علم لنا به يا تولجا.

فقال تولجا: لا بأس، سأخبركم بعض المعلومات عن مانغوليا الداخلية.

-جميل يا رجل، هذا هو ما نصبو إليه، قال خالد.

فشرع تولجا في حديثه عن منغوليا الداخلية قائلًا : تتقاسم منغوليا الداخلية حدودًا دولية مع منغوليا وروسيا، وعاصمتها هي هوهّوت، بها عدة مدن رئيسية أخرى تضم باوتو، چي‌فنگ، وأُردوس، من أهم ما يجب معرفته عن منطقة منغوليا الداخلية هو أنها منطقة ذاتية الحكم تأسست في الصين

عام ١٩٤٧م يسكنها الشعب المنغولي، وتعتبر أول منطقة حكم ذاتي بالصين، كما تبلغ مساحتها ١٨٣ ,١ مليون كيلومتر مربع، أي ما يعادل ١٧٪ من مساحة الصين، وتعيش بها ٤٩ قومية أشهرها قومتي المغول والهان ، فيما يصل تعداد شعبها إلى نحو ٢٥ مليون نسمة.

-رائع يا رجل، قال خالد متبعًا ذلك بتصفيق مكتوم الصوت.

فقال تولجا: على الرحب والسعة يا رفاق، فأنا أيضًا أعرف مالا تعرفون.

فقال عبد القادر سائلًا: وما هي اللغة الشائعة في منغوليا الداخلية يا تولجا؟

فأجاب تولجا: على الرغم من أن اللغة الصينية هي اللغة المتداولة والمعمول بها في الهيئات والمؤسسات الحكومية كالمدارس والشركات ومحطات القطار وغيرها، إلا أن أهل منغوليا يعرفون اللغة المنغولية ويتحدثون بها مع بعضهم البعض، ويمكنك أن تلحظ ذلك في حديث كبار السن فور وصولنا.

-رائع، قال خالد مجيبًا.

ثم أعقبت ألتان ذلك قائلةً: ليس هذا فحسب، بل إن لنا عملة مستقلة عن الصين، أي أن منغوليا الداخلية يتوفر بها اليوان الصيني والتوغروغ المنغولي.

-إن هذه المعلومات القيمة لا يمكن أن تُعرَف إلا برحلات كهذه، هذا حقًا رائع، قال عبد القادر.

ثم أعقبه خالد قائلًا: إنه لمن الجميل أنكم تتحدثون الإنجليزية بطلاقة، وإلا فما كان لنا أن نتحادث أو نعرف كيف نتواصل، لكن هناك أمر آخر.

-وما هو؟، سألت ألتان.

فقال خالد: لقد لاحظت أن أسماءكما ليست أسماءً صينية، فهل هذه الأسماء منغولية؟

-إنك على قدر كبير من قوة الملاحظة فعلًا يا خالد، قال تولجا

-في الحقيقة لنا أسماء صينية وأسماء منغولية، لكننا نستخدم الأسماء المنغولية أكثر كونها الأصل، والأسماء الصينية لا تتعدى الاستخدام الحكومي في المستندات وغيرها، لكن كيف عرفت الفرق بينها؟، قالت ألتان.

فأجاب خالد: قرأت فيما سبق أن الأسماء الصينية تتكون من ثلاث مقاطع أو مقطعين، هما اللقب والاسم، أما تولجا وألتان فهما اسمان بمقطع واحد لكل منهما، وسيكون من الجميل لو تطلعونا على معان هذين الاسمين.

فقالت ألتان: يبدو أنك تعرف كثيرًا خارج مجالك يا خالد! في الحقيقة إن ألتان يعني ضوء الفجر أو الفجر الذهبي، وهو على حسب الاستخدام، أما تولجا فتعني المبتهج أو النشيط وهو بين المنغولية والتركية.

-هذه معلومات قد تبدو بسيطة لكنها في الحقيقة لا تقدر بثمن، شكرًا لكم على مشاركتها معنا، قال خالد.

-ادخر عذب كلماتك واشكرنا فيما بعد يا رجل، فالرحلة وما تشمل من ضيافة ومعارف لم تبدأ بعد، ها نحن قد وصلنا! قال تولجا مشيرًا بيده نحو وادٍ بعيد على مرمى البصر تتوسطه بعض الخيام المنغولية العتيقة.

لما اقتربت ألتان بالسيارة من الخيام قليلًا التفتت لخالد وعبد القادر قائلة: أتمنى أن تستمتعوا بالطبيعة هنا وأن تريحوا أذهانكم من صخب المدن ورتم الحياة السريع بها قدر استطاعتكم، كي يتسنى لكم اتخاذ قرار مناسب بشأن أعمالكم، والآن يمكنني أن أقول مرحبًا بكم في أرضنا، فهذه البقعة من العالم هي أحب الأماكن إلى قلبي، أتمنى أن تعجبكم وأن نكون عند حسن ظنكم.

فرد عبد القادر قائلًا: هذا لطف كبير منكِ يا ألتان، يكفي أنكِ قد قدتي بنا السيارة طوال هذه المسافة دون ضجر، كما أن حديثكما الشيق عن منغوليا وعاداتها وتقاليدها قد زاد فضولنا، أليس ذلك يا خالد؟

فرد خالد: وهل هناك شك في ذلك، تكفينا صحبتكم وهذا الهواء العليل والشمس الساطعة والسحب المنخفضة التي تبدو كقطع القطن المصري الذي ما عدنا نراه، أنا ممتن للفرصة ولكل لحظة هنا.

التفت تولجا قائلًا: ها أنتما تتحدثان بكل لطف من جديد، ستنبهرون، لكن عليكم أن تعرفوا أمرًا واحدًا!

فسأل خالد: ما هو؟

قال تولجا: كل إنسان هنا يخدم نفسه بنفسه، سوى في الطعام فهذا الأمر تتكفل به جدتي.

فقال عبد القادر: لا عليك يا رجل، المهم ألا تتركونا هنا وحدنا فنضل الطريق.

قال خالد: ونحن على أتم استعداد للقيام بكل الأعمال خلال هذه الزيارة.

-حسنًا، هنا نستقر، قالت ألتان موقفة السيارة.

فقال خالد: هل سنمشي تلك المسافة على الأقدام إلى الخيام؟

فردت ألتان: لا بالطبع، لكننا يجب أن نزور شجرة الأجداد أنا وتولجا أولًا لنخبرهم بعودتنا ثم نمضي للبيت، فهذه أول طقوسنا.

-حسنًا إذًا سننتظركما في السيارة، قال خالد.

فترجل تولجا وألتان من السيارة يتقدمان نحو شجرة وحيدة في وسط الوادي، يبدو عليها أثر الزمن، مزينة بقطع ملونة من القماش على كل غصن من أغصانها، وما إن وصلا أمامها حتى جثا كل منهما على ركبتيه، ضامًا راحتي يديه لبعضهما البعض، وراحا يتمتمان بكلمات غير مفهومة، وما هي إلا لحظات حتى عادا إلى السيارة وأكملا الطريق نحو الخيام.

وخلال تفريغ الحقائب من السيارة، قالت ألتان: ربما قد تستغربان فعلتي أنا وتولجا، لكن من طقوس المغول الأساسية أن نزور شجرة الأجداد عند المغادرة والعودة، وعند الضيق والفرح، لمشاركتهم أحزاننا وأفراحنا ولطلب المعونة والمساعدة والقوة.

فقال خالد: لا بأس إن كانت هذه هي الطقوس، لكن هل يأتيكم أي رد؟

فقالت ألتان: أي رد؟

فرد عبد القادر على عجل: ساعدني يا خالد، إن هذه الحقيبة أثقل مما ظننت، محاولًا أن يبدل الحديث ولا يلفت أنظار تولجا.

وما إن اقترب خالد حتى قال له عبد القادر هامسًا: أرجوك وفر النصح والكلام في الدين الآن، فنحن لم ننم أول ليلة هنا بعد، كما أن تولجا من الممكن أن يستشيط غضبًا من ذلك.

-حسنًا يا صديقي، سأختار وقتًا آخر لنتحدث في هذا الأمر، لكن للتذكرة فقط، فقول الحق لا يحتاج لترتيب الوقت، فكل وقت مناسب له، هيا الآن لنسرع قليلًا فإن الجوع قد تمكن مني، قال خالد

ثم حمل الحقيبة وعاد إلى ألتان يقول: في أي الخيام الثلاث سنرتاح؟

فقال تولجا ضاحكًا: ليس في أي منها يا صديقي، يبدو أنك لم تصدقني حينما قلت لك أن كل شخص يخدم نفسه بنفسه هنا، فالخيمة في المنتصف لجدتي، والخيمة اليمنى لأبي وأمي، والخيمة اليسرى لألتان، أما نحن فسننشئ خيمة البار المغولي خاصتنا بأنفسنا.

-ممتع جدًا، سوف تكون هذه تجربة لا تنسى. لكن أيمكن أن نأكل قبل ذلك، أنا أموت جوعًا يا رفاق، قال خالد واضعًا يده على بطنه كمن يسأل الطعام من شدة الجوع.

فقالت ألتان: بكل تأكيد، فجدتي قد أعدت لكم الشاي بحليب وبعض الأطباق المنغولية التقليدية.

دخل الجمع إلى الخيمة التي تقبع في المنتصف، فإذا بصورة كبيرة لجنكيز خان موضوعة على طاولة في مواجهة الباب، وسيدة عجوز مستدبرة الباب

على اليمين منه تقوم بطهي بعض الطعام، وما إن دخلت ألتان حتى ربتت على كتف السيدة العجوز قائلة: لقد عدت يا جدتي، هل أنهيتِ الطعام؟

فقالت جدتي: شكرًا للأجداد أنك عدت سالمة، نعم أعتقد أن الطعام جاهز الآن، في نفس الوقت كان تولجا قد استقبل الأرض بركبتيه كما فعل أمام الشجرة سابقًا واضعًا يد جدته على رأسه. فارتسمت ابتسامة عريضة على وجه الجدة الضريرة، ثم قالت: لقد عدت لي يا تولجا، لكنك أكثر همة ونشاط من ذي قبل.

وما إن انتهى تولجا من توقير وإجلال جدته إلا وقدم خالد وعبد القادر لها، فسلم عبد القادر أولًا وقال مرحبًا يا جدة، شكرًا لاستضافتنا، لكنها بالطبع لم تفهم فكانت ألتان تقوم بالترجمة طوال الوقت.

فقالت الجدة لعبد القادر: أنت لا تبعد عنا كثيرًا، فهل هو من آسيا؟

فقالت ألتان: نعم يا جدتي إنه من ماليزيا، دولة آسيوية لا تبعد كثيرًا عنا.

لكن عبد القادر قال: وكيف عرفتِ يا جدة؟

فقال تولجا: لاحقًا سأخبرك يا عبد القادر، هيا سلم يا خالد.

وما إن وضع خالد يده في راحة يد الجدة حتى قالت، أنت لست من هنا، الأمر كله غريب عليك هنا، إلا أنك تجيد بعضًا مما نجيد، وبيننا صلة ما، كانت السماء سببها، فمن أنت يا بني؟

وبعد أن ترجمت ألتان كلام الجدة لخالد: نظر إليه عبد القادر قائلًا: يبدو أننا نعيش إحدى قصصك المرعبة يا خالد.

فقال خالد: أنا أيضًا من الشرق يا جدة، لكنني أكثر بعدًا من عبد القادر، فأنا من أبناء النيل وولدت في بلد بناة الأهرامات.

-مرحبًا بكما... سيطول حديثنا إذًا، لذا فالأولى أن نأكل أولًا ثم نتحدث بالتفصيل، قالت الجدة.

جلس الجميع على أرضية الخيمة تتوسطهم منضدة أرضية بارتفاع ٢٠ سم معدة للأكل، عليها إبريق من الشاي الممزوج بحليب الماعز، والذي هو من عادات وتقاليد وطقوس القومية المغولية، فهو مائهم وطعامهم، موضوع بجواره طبق من الحليب المجفف، الذي يؤكل غالبًا مع الشاي، لكن الغريب أن رائحته نفاذة جدًا، ارتوى خالد من الشاي بحليب مرة بعد مرة حتى ملأ بطنه، لكنه لم يستصغ طعم الحليب المجفف ولم يقرب اللحم، كما أشار لعبد القادر في سرية تامة ألا يقرب اللحم، وراح يسأل تولجا عن الحليب المجفف فقال له: إنه مصنوع من لبن الخيل يا خالد، فلا تأكل منه كثيرًا كي لا تصهل طوال الليل كخيل الوادي.

فتعجب خالد وعبد القادر من قوله، مصنوع حليب الخيل، يا رجل أنا لم يكن لي أي ارتباط بالخيل طوال حياتي سوى أنني كنت أمتطيها من وقت لآخر في صغري، لم أكن أعرف أبدًا أنكم تشربون لبنها وتأكلون جبنها، قال خالد.

فرد تولجا قائلًا: ومن أين تظن أن المغول قد حازوا قوتهم إذًا؟

-هذا هو أحد أسرار المغول إذًا!، قال عبد القادر.

هو ليس بسر كبير فقبائل آسيا في البلدان المختلفة لديهم نفس الطقوس من مأكل ومشرب ومسكن، قال تولجا.

فقال خالد: سمعت عن ذلك من بعض الأصدقاء التركمان لكنني لم أتصور يومًا أن أفعل ذلك بنفسي.

فقالت ألتان: لقد ذكرت أنك تجيد امتطاء الخيل يا خالد، فهل لنا بسباق؟

فقال خالد: في الحقيقة لم أفعل ذلك منذ سنوات، كما أنه لا يمكن لمستواي المتواضع أن يضاهي مستوى بنت البادية في ذلك.

-لا تتواضع، أكملوا طعامكم واهنؤوا براحتكم وسيكون لدينا وقت فيما بعد لنكتشف من الأكفأ ونتعلم من بعضنا البعض، قالت ألتان.

-هذا أمر مبشر يشجعنا على المكوث هنا أطول، شكرًا لكِ، قال خالد.

-ولكن قبل أن نشرع في بناء الخيمة التي سننام بها، هل لكما أن تخبرانا عن تكوينها وبعض مزاياها؟

فأجاب تولجا ضاحكًا: لابد أن أصحح لك شيئًا يا صديقي أولًا، وهو أنها لا تدعى خيمة، بل اسمه اليار المغولي، أو يمكنك تسميته "منجو باو" بالصينية.

-أعتذر منكما، فأنا لا أعرف عن المغول الكثير سوى الجزء الإسلامي من تاريخهم وبداية التاريخ الذي بدأه جنكيز خان، لكن التفاصيل تكمن هنا، فأرجو أن تعلمونا برفق، قال خالد مبتسمًا.

-لا تقلق فالأمر ليس بعظيم، كلها معارف أولية، لنبدأ من اليار المغولي إذًا، فعادةً يتكون اليار المغولي من إطار خشبي مستدير واسع يحمل فوقه غطاءً من اللباد، أما اللباد فيُصنع

عادة من أصواف قطعان الأغنام التي تُصاحب الرعاة، والعوارض الخشبية اللازمة لبناء الهيكل الخارجي لليار المغولي لا تكون متاحة في مناطق السهول والوديان التي لا تنمو بها الأشجار، لذلك يجب أن يتم الحصول عليها عن طريق التجارة بين أهالي وسكان الوديان السفلية المختلفة.

ويتكون الإطار من قطاع أو أكثر من الجدران الشبكية، ومن أهم ما فيها هو إطار الباب، ودعامات السقف المستقيمة، والتاج.

في اليار المغولي ستلاحظان وجود عمود أو أكثر لحمل التاج ودعامات السقف المستقيمة. أما الإطار الخشبي أو عجلة السقف فهي ثقيلة بعض الشيء، وهنا يحدث لغط عند بعض أهل الغرب، غالبًا ما يشير الغرب بالخطأ إلى الهيكل البنائي المماثل لدى قبائل البدو في أوزباكستان وطاجسكتان وغيرها والمُسمى بـ اليورت على أنه مماثل لليار، ولكن اليار في الحقيقة يختلف عن اليورت في أن عجلة السقف (TONOO) أكثر ثقلًا، كما أنها تكون مدعومة بواسطة أعمدة، وتكون الدعامات المُكوِّنة للسقف مستقيمة بدلًا من كونها مقوسة لأسفل عند نقطة التلاقي مع الجدار، كما أن الجدار الشبكي لليار مكون من قطع مستقيمة بعكس تلك الموجودة في اليورت والتي تتميز بالانحناء والتقوس.

وعلى حسب توافر المواد، فمن المعتاد أن يُغطى اللباد بطبقة أو أكثر من الكتان الغليظ أو أغطية الشمس، ويُمسك الإطار مع بعضه البعض باستخدام واحد أو أكثر من الحبال أو الأربطة، ويُحتفظ بالهيكل البنائي لليار تحت قوة الضغط التي تحفظ تماسكه عن طريق وزن الأغطية.

-وماذا عن الزخارف التي نلاحظها على جوانب اليار يا تولجا؟، سأل خالد.

فأجاب تولجا قائلًا: إن الزخرفة التقليدية لليار عادة ما تكون في المقام الأول معتمدة على نماذج وقوالب محددة.

وهي تتضمن الصليب المعقوف (سواستيكا) والوحوش الأربعة التي ترمز للقوة (الأسد والنمر والجارودا والتنين)، كذلك يُستخدم التصوير الممنهج للعناصر الأساسية الطبيعية الخمس (النار والماء والأرض والمعدن والخشب)، فهي تعتبر العناصر الأساسية غير المتغيرة للناموس الكوني، ومثل هذه القوالب تُستخدم كثيرًا في مساكن اليار أو اليورت مع الاعتقاد القوي أنها ستجلب القوة وتوفر الحماية، ولا يمكن أن يخلو اليار المغولي من تصاوير الحيوانات.

كما يُصمم اليار بحيث يمكن تفكيك أجزائه وحملها بشكل منظم على الجمال أو حيوانات الياك التي تتحمل الأوزان الثقيلة ليتم إعادة بنائه في موقع آخر.

-يبدو من كلامك أنه عمل شاق يا تولجا، كم يحتاج بناء اليار من وقت؟، سأل عبد القادر.

-يستغرق الانتهاء من بناء اليورت حوالي ساعتين، أجابت ألتان.

-وإن أسرعنا نحن الثلاثة فيمكننا إنهاؤه قبل ذلك، فالقطع جاهزة والأدوات أيضًا، قال تولجا.

-نحن أربعة، فأنا سأشارككم أيضًا، لكي تتمكنوا من أن تنالوا قسطًا من الراحة في وقت أسرع، قالت ألتان.

فقال عبد القادر رافعًا يده اليمنى للأعلى محمسًا نفسه والبقية: جميل لنبدأ المهمة إذًا.

وقبل الشروع في بناء اليار، طلب خالد وعبد القادر بعض الماء من ألتان للوضوء، فقد فاتتهما الكثير من الصلوات بحكم السفر وبعد المسافة، وما أن شارفت ألتان على سؤالهما عن ماهية الوضوء؟ استوقفها تولجا قائلًا: اعطيهما الماء فهما بحاجة للصلاة.

تعجبت ألتان لبعض لحظات لأنها كانت الوحيدة التي لاحظت أن خالد لم يأكل من اللحم على الإطلاق، كما أنها اندهشت لما ذكر خالد مُسمي المغول المسلمين، والآن الوضوء والصلاة؟ ما هذه المسميات ولمَ لمْ يأكل اللحم؟، كان الفضول ينال منها في كل لحظة تتأخر فيها عن معرفة أصول تلك المسميات والأسباب.

فتوضأ خالد وعبد القادر وراحا يصليان خلف اليار المغولي في هذا الوادي الذي يأسر النفس بجماله، لكن ألتان لم تبارح المكان ولم تحرك عينيها

بعيدًا عنهما ولو لثانية واحدة، فلاحظت كل حركة وفعل قاما به خلال تلك الدقائق، ولما انتهيا من أداء الصلاة عادت أدراجها في عجالة تحاول أن تنهي مع تولجا تنظيف مكان الطعام، لكن الفضول لم يتركها كثيرًا فعادت مسرعة واستوقفتهما بالقرب من أدوات بناء اليار قائلة في عجالة: حسنًا! أخبراني الآن لماذا لم تأكلا اللحم؟ وما هو الوضوء؟ وما هي ماهية تلك الصلاة والغرض منها؟ ولمن تصلي إن لم يكن أمامك أي شيء؟

نظر خالد لألتان في دهشة وبدهشة أكبر نظر لعبد القادر، وقبل أن يتكلم خالد، قال عبد القادر: في الحقيقة أنا لا أعرف لماذا منعني خالد من تناول اللحم، فهو يلحظ أشياءً من الصعب علي معرفتها في وقتها.

فقال خالد: الأمر ليس سرًا يا رفاق، إننا نحن المسلمون نأكل من طعام أهل الكتاب فقط. الذين هم اليهود والنصارى، كما في قول الله تعالى "الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ" المائدة ٥ لكن بعد ما رأيت منكما من الصلاة لشجرة الأجداد، تبين لي أن تولجا ليس نصرانيًا ولا يهوديًا وبالتأكيد ليس مسلمًا فلا يمكن أن نأكل من اللحوم التي لم يذكر اسم الله عليها، طبقًا للعقيدة، وفي هذه الأحوال الأولى هو أن نذبح بأيدينا لنوافق الشروط.

فقال عبد القادر: يا الله! شكرًا لك يا خالد على التنبيه، فأنا لم ألتفت لكل ذلك.

ثم أعقبت ألتان ذلك بقولها: إن أمر اللحم يمكن تدبره، يمكنكما أن تذبحا بأنفسكما ما شئتما طوال مدة إقامتكما هنا، لكن يجب أن تجيبني على باقي الأسئلة.

-لا بأس فأنا لن أهرب، سأجيبك الآن أو لاحقًا بكل تأكيد، لكن، أيمكننا تدبر أمر اليار أولًا؟، فأنا في أمس الحاجة إلى الراحة لكي أجيبك على الأسئلة باستفاضة تريح فضولك، قال خالد.

حسنًا سأخبر تولجا أنكما انتهيتما من أداء التعبد ولنبدأ، قالت ألتان والتفتت عائدة إلى اليار لإخبار تولجا.

في الناحية الأخرى من العالم كانت معشوقته القديمة ما زالت تفكر في الطريقة التي تعامل بها معها أثناء مأدبة الوداع قائلة: واضح كده انه اتعود على الأجنبيات ومابقاش يشوفني قد المقام، أو يكون فاكر نفسه أحسن مني بعد ما درس ماجستير ودكتوراة وأنا حتى مش عارفة أشتغل بعد ما تعبت كل السنين دي، بس عنده حق، ما أنا اللي مش عارفه أقنع البيه جوزي بطريقة كويسة تخليني أشتغل وأرجع الدكتورة تاني في نظر الكل، والله لأخليه يندم!

عاد زوج الدكتورة إلى المنزل بعد إحدى السهرات الطويلة التي تنتهي بعد منتصف الليل، وعلى غير المعتاد يجدها في انتظاره، فيتعجب قائلًا: إيه الهنا اللي أنا فيه ده؟ مش معقول تكوني مستنياني، انتي مش جايلك نوم ولا ايه؟

هي: لا يا حبيبي بس انت بره من الصبح فوحشتني، ومع إني دايمًا في البيت إلا إننا مش بنقضي وقت كتير مع بعض، فيقترب منها ويضع رأسه على

فخذها المتمدد على الأريكة قائلًا: أنا بحبك لما بتسمعي الكلام، وهحبك أكتر لما يزيد اهتمامك بيا زي النهاردة كدا.

هي: ليك عليا كل يوم من ده وأحسن كمان، تحب تتغدي إيه بكره؟ أؤمر يا جميل أمرك نافذ.

الزوج: يا سلام عليكي ياسلام، علشان أقرر كويس آكل إيه فلازم أكون جعان، وأنا مش جعان دلوقتي، بس بعد الكلام الحلو ده أنا جاتني فكرة.

هي بنظرة لؤم: قول يا أبو أفكار ليلية متوحشة.

الزوج:احنا نمارس شوية ألعاب أولومبية في صالة الألعاب فنتعب ونجوع، ووقتها نتفق هناكل إيه بكره.

هي: اتفضل يا كابتن

تمر الأيام مع دعاء لتجد نفسها في دوامة جديدة من العمل المنزلي والطبيخ الذي لا ينتهي بسبب ما عودت عليه زوجها، فوتيرة طلباته تتزايد باستمرار، حتى حانت الليلة الفاصلة التي قالت له فيها: بقولك إيه يا روحي! بما إن والدك معاه فلوس وانت الولد الوحيد وممكن تطلب اللي يعجبك، إيه رأيك لو ناخد مبلغ من بابا ونفتح بيه معمل أو شركة لتركيب الأدوية؟

الزوج: وبعد ما أفتح المعمل أو الشركة هنكسب فلوس صح؟

هي: أكيد وفلوس كتير كمان.

الزوج: إحنا أصلًا عيلة غنية، واللي بنحتاجه بنشتريه بفلوسنا، فبلاش وجع قلب.

فقالت بغضب: أمال كنت بتدرس جامعة ليه مادمت مش هتشتغل؟

الزوج: وهي كلية تجارة لازم تطلعني عالم!، يا بنتي أنا أصلًا مش حابب التعليم، بس دي شهادة علشان أبويا يقول الباشمحاسب راح وعمل وسوى وكده، وأنا عملت ده علشان أرضيه واستحق فلوسه، واتخرجت بمقبول وكنت بدفع للجان الإمتحانات علشان يسيبوني أنقل الإجابات، فارحميني بقى من فكرة الشغل دي.

هي: اتكلم عن نفسك بس، إنما أنا تعبت وسهرت وذاكرت ولازم أشتغل، لو مش بالحُسنى فبالعافية.

الزوج: انتي بتعلي صوتك عليا، طيب أقسم بالله لو فتحتي موضوع الشغل ده تاني لأقطع لسانك ولا أقولك، أنا هوريكي عينة دلوقتي، وبدأت وصلة ضرب طويلة تزامنًا مع أغنية سلم على الشهداء اللي معاك التي ظهرت حديثًا.

حينها كانت المعشوقة خلال تلقي الضربات تفكر في طريقة تنهي بها هذا الجحيم المتعلق بفكرة العمل وتتخلص بها من هذا الزوج المتسلط، والذي هو في نظرها لا فائدة منه في البيت أو المجتمع.

بالعودة لبناة اليار، قال عبد القادر حاملًا قطعة من جوانب اليار الخشبية: من منكم سيطلعني على أمر الجدة يارفاق؟ أرجوا أن تخبروني بكيفية معرفتها لنا ومن أين أتينا رغم أنها ضريرة، حتى أستطيع أن أنام في ليلتي هذه؟

فقالت ألتان بعد موجة من الضحك الهستيري: حسنًا! إنه لدينا نحن المغول اعتقاد شائع بأن من يموت فإن روحه تعلق في السماء، ترى كل

شيء وتحفظ محبيها من الشر والأشرار حتى يلحقوا بها، كما أن بعض الأرواح التي فارقت من تحب بشدة، تسكن أجساد الأحياء بين الحين والحين لتطلعهم على بعض أسرار السماء والعوالم الأخرى، ويبدو أن جدتي ترى بعضًا من ذلك منذ أن مات جدي الذي كانت تحبه أكثر من نفسها، كما أن جدتي لديها بعض القدرة على التواصل مع الحيوانات كالجمال والخيل وتعلم ما يؤذيها.

-مدهش!، قال خالد.

فرد عبد القادر قائلًا: تقصد مرعب! أو مخيف؟ هذا الأمر لا يمكن أن يكون مدهشًا بإيجابية.

-لا تخف يا عبد القادر فكلها أمور طبيعية هنا، ستعتادها إن تكررت أمامك عدة مرات،

لنجرب الليلة الأولى ثم نقرر في الغد إذًا.

انتهوا أخيرًا من بناء اليار وأطلقت عليه ألتان اسم: يار الأسرار.

فنام الشباب الثلاثة ليلتهم هانئين دون أن يشعروا حتى بتقلب أجسادهم، فنوم التعب دائمًا أفضل من نوم العادة.

لكن ألتان لم يهدأ لها جفن ولم تعرف طعم النوم سوى لدقائق معدودة أجبرت نفسها عليها. فقد قضت ليلتها ترتب الأسئلة في رأسها، مخافة أن تنسى أمرًا ما، فهناك أشياء بدأت تحدث لها منذ أن حل الغريبان، والأفضل لها أن تفكر في حيلة ما لتعرف من خالد إجابات كل تلك الأسئلة دون تردد

منه أو مماطلة، فقررت أنها في الصباح ستذهب مع خالد لذبح وإحضار أحد الخراف من المزرعة لكي تعد لهم طعام الغداء.

لكن قبل الصباح بقليل سمعت ألتان صوتًا في الخارج على غير المعهود، فتولجا لا يستيقظ سوى بأصوات طبول الحرب، وجدتها لا تخرج في هذا الوقت، كما أن والديها في رحلة صيد لا يعودان إلا بعد أيام، فما هذا الصوت إذًا؟ قالت في نفسها وهي على قدر كبير من التعجب.

خرجت ألتان من اليار خاصتها وما أن اقتربت من الصوت حتى رأت الغريبان خالد وعبد القادر يفعلان نفس الحركات مرة أخرى ولكن بصوت يُسمِع المستيقظ ولا يوقِظ النائم.

ولما انتهيا وجدا ألتان تجلس خلفهما على نفس الهيئة التي جلسا فيها لقول التحيات في نهاية الصلاة.

فانتفض عبد القادر لرؤيتها قائلًا: ياربي! لقد كدتِ أن تقتليني رعبًا يا ألتان.

أما خالد، فقد كان هادئًا جدًا وراح يسألها قائلًا: لم تجلسين هنا؟

لكن ألتان لم تجب سريعًا كما كان متوقع، ولم تلتفت كثيرًا لما قال عبد القادر، فقالت في هدوء: أنا متأسفة يا عبد القادر، لكنني لم أقصد ذلك.

فرد عبد القادر قائلًا: لا بأس، سأذهب لإكمال نومي ولنتحدث في الصباح.

-حسنا! نومًا هنيئًا يا صديقي، قال خالد

أما ألتان فراحت تقول: ما الذي يوقظكم في مثل ذلك الوقت للتعبد؟ أليس النوم أفضل ما يحب الرجال أو البشر بشكل عام؟

قال خالد: وهذا هو المقصد، أن تترك ما تحبه نفسك لفعل ما يحبه الله، وهنا يكمن الهدف من التعبد ويزيد العطاء ويتأكد الإيمان، كما أن خير الأمور ما أكره المرء نفسه عليه.

-هل إلهكم اسمه الله؟ سألت ألتان.

قال خالد: نعم، ربنا وربكم ورب كل شيء هو الله، هو خالق البشر والحيوان والطير والشجر والحجر وكل شيء، الله هو القائل معرفا بنفسه وبعض من قدراته "وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" (٥٩)الأنعام.

-لذا فقد كنت متعجبًا من كونكم تعيشون في هذا الجمال الذي وهبه لكم وتسجدون لأحد مخلوقاته ولا تعبدونه هو.

وقبل أن تسألي عن مكانه يا ألتان فالله تعالى لا يحده مكان فهو تعالى خالق المكان وموجود قبله، لذا لا يصح سؤال متى أو كيف أتي الله، لأنه تعالى خالق الزمان أيضًا وموجده.

فكل فعلٍ منه معلوم والكيف منه غير معقول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بمثل ذلك بدعة كما قال الإمام مالك أحد أهم الأئمة الأربعة في الإسلام.

وإن كانت العقول البشرية لا يمكن أن تعقل إلا الأشياء التي يحويها المكان، والزمان، فالله تعالى أزلي أبدي أمدي سرمدي، لذا فكل من كان ويكون وسيكون لا تصح في حق الله. وإن كان العقل لا يمكن أن يستوعب

فكرة وجود الجن الذين هم خلق آخر فقط لأننا لا نراهم، أو وجود الجنة بأوصافها العظيمة التي هي خلق من خلقه فكيف يعرف ماهية الخالق؟؟

كالشنقيطي أحد العلماء المسلمين مثلًا لما قال في صفات الله تعالى.

وما نقول في صفات قدسه ... فرع الذي نقوله في نفسه

فإن يقل جهميهم كيف استوى ... كيف يجي فقل كيف هوا

لا فرق بين ما سميه يعد ... وصفا لنا كعلم أوجزءا كيد

الباب في الجميع واحد فلا ... تكن معطلا ولا ممثلا

يأتي يجي يكشف عن ساق يضع ... قدمه على جهنم يسع

بفضله الخلق يداه بالعطا ... مبسوطتان كيف شاء بسطا

كلتاهما في يمنها يمين ... فهو بذا من خلقه يبين

يرى ولا يراه منا ذو بصر ... حتى يموت مثل ما جا في الخبر

يسمع يبصر يحب يعجب ... يضحك يرضى يستجيب يغضب

فالله تعالى لا يجب وصفه إلا بما ذكر به نفسه في القرآن كما قال مالك الصغير وأهل العلم.

وللقائل أن يقول أن الله تعالى له يد كما وصف بها نفسه وله عين كما وصف بها نفسه ويقف عن الكيف منها، لأنه لا يصح تشبيهه بشيء فسبحانه تعالى ليس كمثله شيء.

فقالت ألتان: في الحقيقة لقد سألت نفسي هذه الأسئلة كثيرًا، إلى أن انتابتني بعض الأحلام منذ أن كنت في الخامسة عشرة من عمري، فشكل الصلاة والطريقة التي تتعبدون بها قد رأيتها من قبل في أحلامي كثيرًا، لكني لم أكن أعرف أبدًا لمَ؟ وما هذا الذي أراه؟ إلى أن رأيتكما بالأمس تفعلونها، ولما سألت جدتي قالت أنه ربما يكون مسًا من روح اشتاقت لي وأنا لا أعرفها، لكن أي روح تعرف تلك الأشياء وتعرفني!

-إن هذه علامات من الله يهبها عباده الذين يحاولون الوصول له، لكنهم يحتاجون لبعض العلامات لتؤكد لهم الطريق، فيوفق الله بعض الناس ويسبب الأسباب بهم وفيهم ليوصل العلامات لمن سألوا عنها ولمن أرادوها، قال خالد.

-إن الأمر معي لا يقتصر على العلامات، فأعتقد أن لأذني دخلًا بهذا الأمر، فهناك صورة ترتسم دائمًا حول أذني تظهر لي في أحلامي ولا أعلم ماهيتها أو معناها، قالت ألتان وهي في جلستها لم تتحرك، لكن يداها ممددتان بين فخذيها في صورة المنكسر وبظهر غير مستقيم كما هو معهود.

فقال خالد: هل لي أن أرى أذنيك؟

فكشفت ألتان شيئًا كمنديل ملون تستخدمه كل سيدات منغوليا صيفًا وشتاءً حول الأذن ويغطي جزءًا من الشعر، لكن لما بدت أذنها تعجب خالد قائلًا: سبحان الله الذي سخرنا لنأتي هنا ونقف على آية من آياته.

فقالت ألتان: ماذا تقول؟ ما هي الآية؟

قال خالد: إن ثنيات أذنك اليمنى تكتب باللغة العربية اسم الجلالة الأعظم "الله" لأصورها لك لتقفين على حقيقتها ولتتأكد سويًا.

فأخرج خالد هاتفه النقال وصور أذنها اليمنى ومن ثم كتب على الهاتف لفظ الجلالة الله باللغة العربية وجعلها تقارن ما ترى قائلًا: هذا لفظ الجلالة الأعظم وهذه كتابته باللغة العربية، وللأمانة فليست له أية ترجمات في أية لغة أخرى، وما يتداوله الناس بينهم هو ترجمة لكلمة إله، وليس للفظ الجلالة الله، فانتفضت ألتان مما رأت، وقالت: ماذا يعني هذا؟

فقال خالد: هذا يعني أننا ربما أتينا هنا لكِ أنتِ وليس لبدء المشروع، والله تعالى يسر كل ذلك وسبب له الأسباب كي نصل إليكِ.

لقد كنت دائمًا أتساءل عن أشياء كثيرة ولا أجوبة لها أمامي، قالت ألتان.

فسأل خالد: هل يمكنك مشاركة تلك الأشياء معي؟ ربما أملك بعض الإجابات لها؟

فقالت ألتان: دائما ما تظهر في أحلامي هيئة بناء ضخم باللون الأسود، لا يشبة اليار ولا أي من تصاميم المنازل التي أعرفها، يدور الناس حوله في دوائر لمرات عديدة مرددين كلمات كثيرة، لكن الغريب أنهم يبكون من الفرح أحيانًا ومن الخوف أحيانًا أخرى، ولا يتوقف الأمر هنا، ففي إحدى المرات رأيت نفسي ذاهبة لأصلي للشجرة، لكن الشجرة تكلمت لي قائلةً اذهبي للبناء الأسود فربه أولى بالتعبد، فهو موجد كلانا وكل ما نرى.

فهبطت الجبل وتركت الشجرة وذهبت لأدور مع الجمع وأنا لا أعرف ماذا أقول، إلا أني كنت أسأل باللغة المنغولية أخبرني لماذا أنا هنا؟

-كل إجابة تساؤلاتك هذه يمكن أن يشرحها هذا المشهد، وأخرج خالد من هاتفه النقال مقطعًا مصورًا لجمع من الحجاج يطوفون حول الكعبة المشرفة، ثم قال: إن الله تعالى قد ذكر في القرآن الكريم قوله تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) فصلت، والذي ظهر في أذنك اليمنى لهو أكبر دليل على أن الله قد أرسل لك آيته وطبق قوله تعالى فيكِ.

وما أن رأت ألتان الفيديو إلا وقالت وعيناها كنهر جار: نعم هذا هو الذي رأيت، أين هذا؟ وماذا يقولون؟ أريد أن أعرف كل شيء، أرجوك أخبرني.

فقال خالد: أعدك أنني سأخبرك بكل شيء أعرفه، لا تقلقي، لكن أتمنى أن يبقى هذا سرًا بيننا نتحدث فيه من وقت لآخر حتى لا يستاء تولجا، ولأن الكلام في الدين ممنوع في دولتكم، فالصين لا تتيح الكلام في الدين أو السياسة وتعاقب عليهما، وأنا لا أريد لأحد أن يتأذى بسببي.

-حسنًا أعدك بذلك!، قالت ألتان

-هيا بنا نذهب لنحضر لكما أحد الخراف لتذبحوها على طريقتكم وتشاركونا أكل اللحم.

-حسنًا سأذهب لأبدل ثيابي ولننطلق، قال خالد.

أحضرت ألتان حصانين من الأحصنة المنغولية ذات القوائم القصيرة، فما أن رآهما خالد حتى قال: هل سنمتطي تلك البغال؟

فقالت ألتان: هذه ليست بغالًا وإنما هما حصانان من الأحصنة المنغولية.

فقال خالد: أشك في ذلك، لأنه لو كان القائد جنكيز خان يمتطي مثل ذلك من الخيول قصيرة القوائم لتوجب عليه أن يرفع قدماه عن الأرض، وما كان ليحظى بأي تقدير من أحبته أو أعدائه، فقد كان ضخم الجثة على ما أتذكر من وصف له في النصوص.

قالت ألتان في تعجب: كيف لم ألحظ هذا من قبل؟ صدقت يا خالد، إن هذا الأمر يستدعي التفكير والبحث، لكن حاول أولًا أن تمتطي هذا الحصان لأعلم قدراتك أولًا ومن ثم سأفاجئك.

-أنا لا أحب المفاجآت، فالأحداث المرتبة وحدها كفيلة بإبهاري، لكن لنجرب أولًا، قال خالد.

لما صعد خالد على ظهر الحصان من الناحية اليسري للحصان كما هي القواعد، وجلس مستقيم الظهر، مقدمتا قدميه في موضعهما المحدد دون تقصير أو تجاوز، ممددًا ذراعيه ممسكًا باللجام صاحت ألتان قائلة: لدينا محارب جديد! من علمك هذا؟ أنت في وضعية ممتازة، حتى أن الحصان قد رفع رأسه ترحيبًا بك.

فأجاب خالد: كان لدى جدي قديمًا حصانًا كهلًا ندعوه عنتر، وكنت أحسبه أقرب الأصدقاء إلى قلبي إلى أن مات، وحينها تعلمت الفراق لأول مرة، وأحسست بعدها أنني رزقت قلبًا فتن بالخيل.

-كل كلامك مؤثر، وكأنك ترى ما تتحدث عنه، فتصفه بكل دقة، نعم إن الخيل تفتن الناظر إليها، لكن عليه أن يراها بعين المحب، قالت ألتان

فقال خالد: إن القرآن الكريم به سورة كاملة باسم الخيل وتبدأ بوصفها وإقبالها في الحروب رغم الخطر، كما قال النبي محمد صلَّ الله عليه وسلم أن الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.

وكتب خليفة المسلمين عمر بن الخطاب لأهل الشام قائلًا: أن علموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية، وإن كان لا نصيب لي من السباحة فأعتقد أن عنتر ألهمني بعضًا من ركوب الخيل وأعرف القليل عن الرمي بالقوس أيضًا، ويكفي الخيل شرفًا أننا مازلنا طوال كل تلك السنوات نعدها مقياسًا للقوة، فكل المحركات في العالم مهما اختلفت أحجامها واستخداماتها تقاس بالحصان، فنقول كم حصان هذا المحرك؟ رغم أني لا أعرف كيف قاسوا قدرة أول حصان قبل أن يعدوه وحدة قياس إلى الآن!

-هذا رائع، إنك حقًا ترى الأشياء من منظور آخر يا خالد، لكن ما هو القرآن الكريم؟ لقد ذكرته كثيرًا في كلامك وتستشهد منه على كل ما يمر بك من خاطر، سألت ألتان

فأجاب خالد: القرآن الكريم هو معجزة الله تعالى لنبيه محمد صل الله عليه وسلم رسول الثقلين الإنس والجن، فهو ميثاق المسلمين ودستورهم وكلام الله لهم، وعلى المسلم أن يعرف ما فيه ويتدبر ما به ويجعله صوب عينيه في كل قول وفعل.

-لقد شوقتني لقراءته يا خالد، هل يمكن استعارته منك مدة إقامتك هنا إن كنت تحمله معك؟، طلبت ألتان.

فأجاب خالد قائلًا: بكل تأكيد، عندما نعود سأعطيكي نسخة من اللغتين العربية والإنجليزية أحملها معي دومًا.

-رائع، شكرًا لك يا خالد، لننطلق إذًا!، قالت ألتان.

وعند مرورهما على شجرة الأجداد في طريق الذهاب إلى الوادي الذي يرعون به الأغنام والأبقار والخيول، قالت ألتان وهي تنظر إلى الشجرة: كيف علم الله بما أحدث به نفسي إن كنت لم أصارح به أحدًا من قبل؟ فقد كان يتطلب على أن أتي إلى الشجرة وأجثو على ركبتي وقتما أردت وأخبرها بما يجول في خاطري أو أطلب منها الحماية أو القوة ليتحقق المراد.

فأجابها خالد قائلًا هذا سؤال في غاية الجمال يا ألتان: في الآية السابعة من سورة طه من القرآن الكريم يقول الله تعالى"وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى" محدثًا عن نفسه

وحتى أنا المسلم منذ الولادة والذي أحفظ القرآن كنت كأي مقصرٍ يمُر على القرآن مر العابر لم ألتفت أبدًا لمعنى (وأخفىٰ) رغم قراءتي المتكررة لها على مدار سنوات.

لكن بوقت ليس ببعيد وفي محاولة لمعرفة الفرق بين السِر والجهر والخفاء والعلن من حيث معانيها في اللغة العربية، تكررت أمامي الآية الكريمة واستوقفني القول الكريم، فسألت نفسي فما هو ذلك الشيء الأخفىٰ من السِر نفسه؟

من خلال البحث اتضح أن بها اجتهادات كثيرة وتفسيرات متعددة، لكن أحد عظماء اللغة العربية وهو الدكتور السامرائي قال فيها من الناحية اللُغوية أن: "وأخفى" المقصود بها هو السِر قبل أن يصبح سرًا.

فلو أنكِ فعلتِ أو رأيتِ فعلين وحتى قبل أن تعرفي أو تُحددي أيهما ستكتمين في داخلك فيصبح سرًا دون الآخر، فإن الله تعالىٰ يعلمه.

وعليه:

فالجهر: هو ما تعلمينه أنت وغيرك.

والسر: هو ما تعلمينه أنت دون غيرك.

وأخفى: هو ما يعلمه الله ولا تعلمينه لا أنت ولا غيرك.

وعند الشيخ الشعراوي أحد عظماء تفسير القرآن: الأخفى هو ما لم تنطق به لأحد، وكل ما لم يتحول إلى كلام بعد.

فسبحان من يعلم ما في أنفسنا قبل أن يصل إلينا.

كل مرة تستدل بها من القرآن تشوقني لقراءته يا خالد، أسرع أرجوك لتعطني إياه فور عودتنا.

-حسنًا، لنختبر سرعة الحصان المغولي إذًا، قال خالد محثًا الحصان على العدو.

لما وصلا إلى الوادي الذي يرعى به أهل ألتان الخراف والأبقار والخيول، كانت هذه أول مرة لخالد يرى بها آلاف الخراف والأبقار في مكان واحد لا

يفصلها سوى سياج خشبي، فراح يردد تلقائيًا، ما شاء الله تبارك الله، اللهم زد وبارك!

-ماذا تقول يا خالد؟، سألت ألتان.

فرد خالد: إن الإسلام يحثنا على ذكر اسم الله تعالى عند رؤية ما يسرنا وعند رؤية خير من الله به على الآخرين وعند الخوف وفي كل الأحوال لكن بصيغ مختلفة.

وما الذي يتماشى مع ما ترى الآن؟، سألت ألتان.

-الآن هو لمحبة ما أرى وللخوف من نفسي أن أحسد ما هو لكم، قال خالد.

-حتى هذا الأمر يحث عليه دينكم ويحذر منه؟، سألت ألتان.

-بكل تاكيد يا ألتان، فمن الناس من يحسد غيره دون أن يدري، بل من الناس من يحسد نفسه دون أن يشعر، وللعرب في ذلك مثل يقول: لا يحسد المال غير أصحابه، لذا فذكر اسم الله تعالى واجب في تلك الأحوال لنذكر أنفسنا بنعمه علينا ولنحذر من الوقوع في شَرك الخيلاء بما نملك.

-حسنا يا خالد! يبدو أن الحديث عن الدين لن ينتهي بهذه السهولة، فأنا أتعلم من كل ما تقول لي، كما أنني دائمًا ما أسأل نفسي في كل مرة أساعد زوجة في استقبال مولودها، أو خروف يذبح أو بقرة تلد، من أين جاء الأول من كل شيء؟ إلا أن يكون هناك صانع مبدع فيما يفعل، لذلك فلا أعتقد أن الشرقيون يحتاجون إلى دليل على وجود خالق، فهم أهل تدبر وحكمة بطبعهم، لكن كل ما يحتاجون إليه هو أن يتخلوا عن المدخول الغربي

الذي يهدم عقائدهم ويشتت أفكارهم، وحينها سيحتاجون إلى دليل واحد على عدم وجود الله وهذا هو المستحيل، لأنه موجود في كل شيء، لذا أريد أن أعرف أكثر عنه لنتحاور به، ولا أكون الشخص المتلقي فقط، والآن هيا لنختر ذبيحتكم ولنعد لتحضير الفطور، فجدتي على وشك الاستيقاظ، قالت ألتان.

فأجاب خالد: حسنا يا ألتان لقد توصلت بكلماتك تلك لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ولنفس كلام الأعرابي قديمًا لما سأل عن وجود الخالق فقال: البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج ، ألا تدل على العليم اللطيف الخبير؟

وعن الشافعي –رحمه الله تعالى –أنه سئل عن وجود الخالق –عز وجل – فقال : هذا ورق التوت ، طعمه واحد ، تأكله الدود ، فيخرج منه الحرير، ويأكله النحل، فيخرج منه العسل، وتأكله الشاء والبقر والأنعام، فتلقيه بعرًا وروثًا، وتأكله الظباء، فيخرج منه المسك، وهو شيء واحد.

وبذكر الأنعام والتمتع بها فلنختر إحدى الصغار للذبح إذًا، فأيامنا هنا معدوردة ولا يجب أن نهدر منها شيئًا.

-لا بل لنختر أكبرهم وأسمنهم لأنك ستأكل أطيب لحم خراف ذقته في حياتك، وإن تبقى شيئًا فسنجففه لكم على الطريقة المنغولية ولتحملوه معكم وتتناولوه في أي وقت بكل أريحية، قالت ألتان

-هذا رائع، شكرًا لسخائك، ولكن ألا تخافون من أن تتم سرقتها ليلاً؟، سأل خالد

فأردفت ألتان بقولها: لدينا قانون فحواه أن أبناء الوادي من المغول الأصليين لا يسرقون، لهذا فلا خوف من بعضنا البعض، ولا داع للشكر، لنبدأ إذًا.

اختارا إحدى الخراف السمينة وحملوه معهم بعد أن ذبحه خالد ذاكرًا اسم الله عليه، ولما عادا كانت الجدة قد استيقظت وتهيأت لإعداد الطعام، فأعطتها ألتان بعض لحم الخروف الذي ذبحه خالد وأخبرتها أن تعد الطعام من هذا اللحم، ولا عجب في ذلك، فالإفطار في اليار المغولي يتضمن اللحم والشاي بحليب وبعض الخبز.

بعد ذلك وقفت ألتان كطفل ينتظر عيديته من أبيه على باب اليار، متلهفة لتأخذ من خالد نسخة القرآن الكريم التي وعدها بها، فعلمها كيفية التطهر قبل لمسه فبادرت بذلك في سرور، ثم عادت لتأخذه منه، وهي تقول: أعدك أني سأقرأه بقلبي لأفهم معاني الأحلام ولأقدر تلك الهدية ولأناقشك فيما تعرف قبل كل ذلك.

-فما كان من خالد إلا أن أخبرها بجاهزيته في أي وقت لذلك بكل رحابة صدر.

ولما اجتمعوا لتناول طعام الإفطار كان كلا من خالد وعبد القادر يأكلون اللحم المغولي لأول مرة، لحم لا تتم تسويته إلا بالماء ولا يتم وضع الملح عليه وقت الطهي حتى لا يجف ويتصلب في الإناء ويتأخر طهيه.

كما أنه لا يؤكل سوى باليد، بل يتوجب على الآكل أن يفترسها كما لو كان الذئب سيفعل، استمتاعًا بها،، لذلك كان عبد القادر يقول بعد ذوبان أول قطعة لحم في فمه، الآن وصلت، أنا الآن في منغوليا.

فكان تولجا يرد عليه قائلًا: كل حتى تشعر أن لديك زوجة وأبناء من المغول إذًا.

فما كان هذا يزيد عبد القادر سوى الأكل بنهم، ذلك النهم الذي ينم عن وحشة وجوع واستمتاعًا بمذاق الطعام، وما هي إلا لحظات حتى قالت الجدة: حسنًا الآن أخبرني من أنت يا بني؟

أنا خالد، عربي مصري.

-إن قولك هذا مرادفًا لقولنا منغولي صيني، فهل لك قويمتان؟ أم لسان وبلد؟ أو دين ودلة؟، أردفت الجدة قائلة.

فأجاب خالد: من الواضح أنكِ يا جدتي قد التفتي للمقصد من كلامي، وعليه فإنني عربي بحكم الدين ومصري بحكم المولد والمنشأ.

-وما الفرق بين العرب والمصريين؟ سألت ألتان.

-إن المصريين ينتمون في نسبهم إلى المصريين القدماء بناة الأهرامات والحضارات القديمة. وهم سكان نفس الأرض التي تبدأ بها كل كتب

التاريخ، وهي ذات الأرض التي هزم عليها المغول في آخر معاركهم هناك، ربما قد تتذكرين هذه المعلومة لارتباطها الوثيق بتاريخ المغول يا ألتان، أما العرب فهم...

-انتظر قليلًا، ماذا تعني بهزيمة المغول على الأراضي المصرية؟، سألت ألتان في تعجب!

فردت الجدة: لذلك قلت لكم أنه قريب الثقة بعيد المسافة عندما سلمت عليه، أخبرنا أولًا عن نشأة العرب يا بني ثم أخبرها عن المعركة لاحقًا، قالت الجدة.

فأجاب خالد قائلًا: حسنا يا جدة! أما أصل كلمة عرب أو عربي فإنها مُشتقة من الفعل يُعرب، أي يُفصح في الحديث، وأصبحت الكلمة دلالة على فصاحة العرب فيما بعد لتمكنهم من اللُغة وفصاحتهم في الكلام.

وأما أصل اللغة العربية الحجازية الفصيحة التي أُنزل بها القرآن الكريم فتأتي من نبي الله إسماعيل عليه السلام لأنه هو أول من نطق بها وللعلم فهو أول من روض الخيل أيضًا، لذلك فهناك فصيلة نادرة من الخيول ربما سمعتم عنها تسمى بالخيول العربية الأصيلة أو الأدهم، ولكن يجب التأكيد على العربية الفُصحى لأنه كانت هناك لغة عربية بين قومية القحطانيين قبل ذلك كما أقرها أغلب الرواة.

والنبي إسماعيل عليه السلام هو ابن نبي الله إبراهيم عليه السلام والسيدة هاجر رضي الله عنها، أما السيدة هاجر فهي سيدة مصرية الأصل، وإن كانت الروايات تختلف على أنها كانت أميرة من العماليق أو من الكنعانيين

الذين حكموا مصر قبل الفراعنة ثم تبناها فرعون كما قال ابن كثير في "البداية والنهاية"، أو على أرجح الأقاويل كانت أميرة مصرية وتحديدًا كانت أخت للملك سنوسرت وهي ممن استبقى عليهن الهكسوس بعد ذلك، وهذا الرأي هو الأرجح لمرجعية أصل كلمة فرعون في اللُغة العربية، وليس هذا مقام الحديث الآن.

فحُبًا وكرامةً لسيدنا إسماعيل الذبيح والسيدة هاجر عليهما السلام أخرج الله نبع "ماء زمزم" وكل المسلمين يعلمون فضله ومكانته في الإسلام، ثم تكريمًا لإيمان السيدة هاجر رضوان الله عليها صاحبة القول الكريم"لن يُضيعنا الله" جُعلت شعيرة "الصفا والمروة" والتي هي من أسس شعيرة الحج في الإسلام.

وعليه فإن سيدنا إسماعيل عليه السلام هو أبو العَرب الحجازيين كلهم وبلا استثناء " العرب المستعربة" وأخيرًا فالعرب المستعربة هم من سكنوا شبة الجزيرة العربية قديمًا وهم على سبع دُول وممالك بمسميات مختلفة الآن وهي: ١-السعودية.٢-اليمن. ٣-سلطنة عمان. ٤-الإمارات. ٥-الكويت. ٦-قطر. ٧_البحرين.

فالمصريون هم أخوال العرب، ولا يمكن لهذا الحدث أن يتغير لأن هذه الصلة لا يمكن قطعها مهما جرت الأيام، ثم تحولت مصر للغة العربية بعد الفتح الإسلامي واندثر لسان المصريين القدماء وهو ما نعاني في إعادته ونطالب بتعليمها من جديد لنفهم تاريخنا بأنفسنا، لكن العقبات كثيرة.

ولكن لا شيء يحدث في مُلك الله إلا بتدابير الله، وكلنا من سام وحام ويافث وهم بدورهم من نوح عليه السلام ونوح لآدم عليه السلام، إذًا فكلنا لآدم وآدم من تراب، ولا فرق بين مغولي أو مصري أو صيني أو أوروبي أو آسيوي، وربما قصدت الجدة هذه الصلة بحديثها عن صلة القرابة بيننا...

-وماذا تعرفون عن تاريخ المغول؟ سأل تولجا

فأجاب خالد: الشائع لدى العالم أجمع أن تيموجين كان أقسى الغزاة، وأشد البشر فتكًا فقد قتل ما يقرب من ٤٠ مليون إنسان، في حقبة كان البشر فيها قلة، لذا فالمعروف عنه أنه كان يتفنن في قتل وتعذيب الناس، وربما يرجع ذلك لما رآه في صغره من انعدام الثقة بالآخرين وما حل به من فقد.

ورغم أن طموحه كان القضاء على قبائل الماركيت والنايمان، ١٢١٨ تحقق له ذلك، ولكن رغم توسع نفوذه فلم يفكر في مهاجمة الدولة المسلمة الخوازمية حينها، والتي كان خليفتها السلطان محمد بن خوازرم شاه، فأرسل له السلطان ٣ تجار لمناقشة الأوضاع التجارية فوافق تيموجين وأرسل له ٤٥٠ تاجرًا، اتجهوا حينها لمدينة أترار لممارسة التجارة، لكن حاكم المدينة أرسل للسلطان قائلًا: أن هؤلاء جواسيس، فأمره السلطان بمراقبتهم والتأكد من أمرهم، لكن يانال خان حاكم أترار قتلهم وصادر أموالهم، فأرسل جنكيز خان للسلطان يأمره بتسليم يانال خان، لكن السلطان رفض حينها وقتل الوفد حامل الرسالة، وقد كان هذا إعلان حرب، فاحتل جنكيز خان الدولة الخوارزمية ولم يترك أحد يتنفس في مدينة أترار، وهرب بعدها السلطان محمد بن خوارزم لإحدى الجزر إلى

أن مات فيها، واستمر المغول في التوسع في الهند وغيرها من مناطق آسيا الوسطى وبعض أوروبا حتى وصلت إلى فيينا...

توفى جنكيز خان كما تعلمون في ١٢٢٧م، لكنه كان يقول دائمًا أنا عقاب الرب فماذا فعلتم ليبعث الله عليكم عقابًا مثلي؟

-وماذا عن تلك المعركة التي ذكرتها آنفًا يا خالد؟، سألت ألتان.

فأجاب خالد: إن معركة عين جالوت يا ألتان هي إحدى أبرز المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي، بل وفي تاريخ العالم أجمع، ولا أعرف إن كانت الجدة تسمح لي برواية القصة مع ما بها من أحداث تثير أعصاب السامع أم لا؟

فردت الجدة: طلبت منك أن تتحدث على طبيعتك، ولتعلم أن إجابتك وطريقة حديثك هما ما يحددان لي أي شخص أنت، فأنا لا أسمع منك إلا قولًا بحكم أنه لا يمكنني أن أرى منك فعلًا، فتحدث ولا تلتفت لما يطرأ على السامع من قولك.

-حسنًا يا جدة، شكرًا لكِ أن أعطيتني الأمان، وقعت المعركة بعد انتكاسات مريرة لدول ومدن العالم الإسلامي، حيث سقطت الدولة الخورازمية بيد المغول ثم تبعها سقوط بغداد بعد حصار دام أيامًا فاستبيحت المدينة وقُتل الخليفة المستعصم بالله فسقطت معه الخلافة العباسية، ثم تبع ذلك سقوط جميع مدن الشام وفلسطين وخضعت لهولاكو، كانت مصر في تلك الفترة تئِنُّ من الصراعات الداخلية والتي

انتهت باعتلاء سيف الدين قطز عرش مصر سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩م وأصبح سلطانا لمماليك مصر.

فبدأ بالتحضير لمواجهة التتار، بعد أن قام بترتيب البيت الداخلي لمصر وقمع ثورات الطامعين بالحكم، ثم جهز الجيش وانطلق إلى عين جالوت، وفيها تواجه الجيشان الإسلامي والمغولي، وكانت الغلبة للمسلمين، واستطاع الآلاف من المغول الهرب من المعركة واتجهوا قرب بيسان، وعندها وقعت المعركة الحاسمة وانتصر المسلمون انتصارًا عظيمًا، وأُبيد جيش المغول بأكمله.

واستطاع جيش المماليك بقيادة سيف الدين قطز إلحاق أول هزيمة قاسية بجيش المغول بقيادة كتبغا، كان لمعركة عين جالوت أثرًا عظيمًا في تغيير موازين القوة بين القوى العظمى المتصارعة في منطقة الشام، فقد تسببت خسارة المغول في المعركة في كبح جماحهم وتحجيم قوتهم، فلم يستطع القائد المغولي هولاكو الذي كان مستقرًا في تبريز إعادة احتلال الشام مرةً أخرى.

-يبدو أن بيننا صلة أخرى، بحكم الوقت الطويل الذي عاشه المغول في الشام وبلاد المسلمين إذًا يا بني؟، سألت الجدة.

فأجاب خالد: ربما صلة النسب يا جدة، فيقال أن كل شخص من مائتين الآن يعود نسبه لجنكيز خان، وذلك لأنه كان مزواجًا كثير الأبناء، وبسبب الغزو وما يلحقه من اغتصاب وغيرها من أفعال.

-قلت فما خبأت يا ولدي، ولم تخف من كونك بيننا وتقول فينا ما كان منا وهذا دليل على

طيب معدنك وانعدام رهبتك من قول الحق، قالت الجدة

فرد خالد قائلًا: يختبر الرجال بالحق، ولا يختبر الحق بالرجال يا جدة.

فقال تولجا مبتسمًا: نعم يا صديقي، لكنك لا تشبهنا كثيرًا على كل حال، وعلى كلٍ فكلامك صحيح! ولقد قيل حينها أن المغول قللوا تعداد سكان العالم بما يعادل ١١٪، كما كانت لتيموجين مقولات كثيرة كالتي ذكرت سابقًا من أشهرها: "بمعونة السماء لقد فتحت لكم إمبراطورية عظيمة، لكن حياتي كانت قصيرة للغاية لتحقيق غزو العالم، فهذه المهمة تُرِكَتْ لكم"

"أنا على استعداد للتضحية بنصف شعب المغول لكي يستقيم النصف الآخر".

"سعادتنا الكبرى هو أن يتشتت عدوك، من أجل دفعه قبلك، لرؤية المدن تحولت إلى رماد، لمعرفة أولئك الذين يحبونه غارقين في البكاء، وتضعه في حضن زوجاته وبناته".

"إذا جسدي مات، اسمحوا لجسدي أن يموت، ولكن لا تدع بلدي تموت".

لكن يبدو أننا نحن المغول فرطنا فيما ترك لنا.

هذا لا يعد تفريطا وإنما من حكمة الخالق في خلقه ألا يدوم شيء لأحد، الأيام دول وكل يحصل على دوره، ولو دام طغيان المغول على غيرهم لكان اسمى تيمور بدلًا من عبد القادر وما كان هناك وجود لمنغوليا الداخلية أو بالأحرى كل الدول التي نراها الآن في الشرق والغرب، ولو دام انتصار المسلمين وفتوحاتهم لكان اسمك أحمد بدلًا من تولجا يا صديقي، فقد قالوا قديمًا بأن البقاء للأقوى، لكن إلى متى؟ فكل قوي يأتي من هو أقوى منه، وكل صالح يأتي من هو أصلح منه، ولكل عصر فرسانه ومخلصيه، ولا يمكن أن يوجد فارس واحد لكل العصور، بل لو أن العجلة لا تدور لكانت فرنسا ما تزال مسيطرة على كل شمال أفريقيا أو لبقيت إنجلترا تسيطر على ثلثي العالم، أو كان لهتلر وما أسماه العرق الآري الغلبة على فير من عادوه، بل لو أنها تدوم ما كان مآل الاقتصاد الأمريكي إلى تدهور في مواجهة الاقتصادي الآسيوي ككل أو الاقتصاد الصيني كند رئيسي، أو ربما تحقق لفرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى مراده ، قال عبد القادر ضاحكًا.

-أحسنت يا عبد القادر، لقد تعلمت الكثير منكم ومن حديثكم الشيق هذا ، لكنني ما زلت بحاجة للتعرف على الإسلام، خاصة وأن المغول قد عاشوه وقد كان منهم المسلمون فيما سبق، قالت ألتان.

فأجاب خالد: نعم يجب علينا جميعًا أن نتعلم عن ما لا نعرف، حتى وإن أخذ ذلك من أعمارنا الكثير فتكفينا المحاولات وما يصحبها من شرف.

ثم هم الجمع بالخروج للاستمتاع بمناظر منغوليا الأخاذة وركوب الخيل والتمتع ببعض الهدوء قبل البدء في دراسة سوق العمل.

منها ذلك اليوم الذي أراح فيه خالد جسده على عشب الوادي، ينظر ذلك الضَوء الخافت في السماء وقت الغسق، قائلا في نفسه: إن هذا الضوء جذّاب ومُريح وشاعري رغم خفقانه وتعدُّد ألوانه، لكن لا بُعد المنظور يحجب رؤية الناظر ولا اتساع المِساحَة يُشتِت الإحساس.

ولا يُمكن لعاقلين أن يختلفا على أن ذاك الضوء يثير في النفس الحنين والاشتياق والطمأنينة، ولكن باختلاف الناظر يختلف المرئي ولا يبقى للزمان أوالمكان سُلطان يُوحِد الشُعور في نُفوس الناظرين، فتختلط الأحاسيس بين أمل فيما هو آت أو ألم مما فات، بين شغف أو ذِكرى تؤلم البعض وتُرقِص القلب فرحًا عند البعض الآخر.

ننظر للأعلى فتتابنا كل تِلك المشاعر المُختلطة والمختلفة وكُل على قدر تأمله! فالشخص الوحيد سيرى فيها كُل ما ترك وفارق، والمُحب سيلقى فيها كُل ما امتلك وعانق.

وحينها فقط تُصبح السماء شاشةٍ إعلامية ومرآةٍ رَوحية يرى فيها كُلٌ منّا ما أودع بعقله، فيتجلى مقامها حتى لا يُمكن مقارنة أيًا ممن عداها بها.

كيف لا وهي الحاجز الأول الذي يفصل أهل السماء بعُلُوِ قدرِهم عن أهل الأرضِ أصحاب الحياةِ الدُنيا وما بها من لهو ولعب، ودُنوَ المُسمى يشرح تدني المقام.

إن أردنا أن نتأمل فعلى الناظر أن يعمل عينه الثالثة.

فالتأمُل في مُلكِ الله واجب نحتاجه لتهدئة أرواحنا!...

_الغسق: أول ظُلمة الليل بعد الغروب.

بعد عدة أيام قرر الأصدقاء الثلاثة مغادرة الوادي والعودة إلى مدينة هوهوت لدراسة الوضع الاقتصادي بها، ولكن قبل أن يغادروا نظر خالد نظرة تمعن أخيرة للوادي والنهر الذي يجري في قلبه لا يكاد الناظر يراه من كثافة العشب على جانبية، وقطعان الأغنام والخيول، وتلك الخرائط المرسومة على أجساد الأبقار، تلك التي تبدو وكأنها أسرار يجب علينا نحن البشر اكتشافها.

تأمل للحظات حتى سمع أصوات الصقور في السماء، واستشعر نسيم الهواء العليل في رئتيه ومتع عيناه بذاك المنظر الفتان، لكن نظرته الأخيرة كانت لألتان وجمالها الطبيعي، بلا مستحضرات تجميل أو حواجب زائفة، كل ما فيها هو الكحل وعطرها الطبيعي الذي تصنعه بنفسها من بعض أوراق الورود وقطعة القماش تلك التي لم تكن تستر كامل الرأس ولا تغطي العيون.

فكأنه لأول مرة يعرف معنى كلمات الرائع إدريس جماع لما قال: "والسيف في الغمدِ لا تُخشَى مضاربُه... وسيفُ عينيكِ في الحالين بتّارُ"

كان عليه أن ينال تلك الجرعة من الجمال ويحفظها في ذاكرته ليستقوى بها على زحام المدينة وضجيجها وسياراتها وأناسها الذين لا يتصارعون إلا على الدنيا دون أن يقتطعوا لحظة للوقوف على الجمال الذي أودعه الله تعالى بهم وأحاطهم به.

وقبل الصعود إلى الحافلة التي تمر من الوادي ذهابًا إلى المدينة ودعت ألتان تولجا والغريبان وهي تنظر إلى خالد وتقول: من يزورنا لابد أن يعود، إن بحثتم عن الراحة فعودوا لنا، فنحن بانتظاركم.

لم يكن هناك وعد بالعودة ولا قدرة على إخراج المكنون في القلوب، لكن لسانا حالهما يقولان، سنلتقي!

بعد أن غادر الشبان الثلاثة إلى المدينة لم يكن من ألتان إلا مصاحبة القرآن الكريم كل ليلة، والليل في الوادي طويل، يبدأ من الثامنة وينتهي مع بزوغ الفجر، ويعرف القراء جيدًا إحساس الفضول الذي ينتاب القارئ عند تمكنه من كتاب يرى فيه ما يبحث عنه.

كان حال ألتان كالجائع الذي سقط في سلة طعام، ذلك السوق الذي يحلم به الجائعون، وبئر المعرفة الذي لطالما بحثت عنه، فصارت تنهل منه وتدون معارفها الجديدة على قطعة قماش كبيرة كانت قد مدتها على جانب اليار منا الداخل كالسبورة، إلا أن بعض الكلمات قد بلغت مبلغ من الصعوبة، وتنوع معناها وربما كان هذا من إعجاز القرآن لأنه نزل بالعربية وفي العرب الذين هم أهل الفصاحة ليحاججهم، فبالتأكيد سيترك بعض الأثر من صعوبة الفهم في نفوس أصحاب اللغات الأخرى.

لكنها كانت تدون كل شيء، وتسعد جدًا حينما تصل لمعلومة أو دليل شيء كانت تبحث عنه.

ظلت ألتان تفعل ذلك لشهران، حتى عاد والداها من رحلة التجارة التي خرجوا بها، وهنا قررت أن تتصل بخالد تسأله عن بعض الأمور التي

استعصت عليها، فما كان من خالد إلا أن استأذن تولجا في ذلك، وفي نفس التوقيت كان عبد القادر يقول: لم لا نعود إلى الوادي مرة أخرى ما دمنا قد أنهينا دراسة السوق هنا؟ فأنا مشتاق للحم الذي تعده الجدة، ولنقابل والديّ تولجا قبل أن نعود إلى ماليزيا..

فرحب تولجا بالفكرة وفرح خالد جدًا باقتراح عبد القادر، لكنهم لم يخبروا ألتان، طمعًا في إدخال السرور على قلبها بصنع مفاجئة صغيرة.

بعد أن اجتمع خالد وعبد القادر بوالديّ تولجا، بادر والد تولجا يشكر حال المسلمين في التعامل التجاري، خاصة أبناء القبائل المسلمة كالإيغور والهوي وغيرهم من القبائل الذين يلقاهم في أسفاره ويشاركهم التجارة، محاولًا بذلك أن يدخل الطمأنينة والسكينة على نفوسهما، كي لا يشعران بالغربة ووحشة البعد عن الأوطان.

فسارع خالد بشكره على حديثة وحسن ضيافته.

لكن عبد القادر سأل عن بعض الأشياء التي مهما كان التوافق فلا يقبل المغول فعلها مع القوميات الأخرى، خاصة القوميات المسلمة؟؟ كان في نفس عبد القادر شيئًا من السر، يريد به أن يقصر الطريق ويوفر عناء المحاولة على خالد ويساعده في اتخاذ القرار بإخباره إياه، ولا سبيل أفضل من أن يسمع الكلام من رأس البيت وعمود الیار.

فرد والد تولجا قائلًا: الزواج والدين.

لا يمكن لأي أب مغولي أن يقبل لأبنائه أن يبدلوا دينهم للإسلام، كما لا يمكن أن يتماشى مع فكرة زواج أولاده منهم.

-لكن الصين لا تفرض مثل ذلك من شروط يا عم، قال عبد القادر

فأردف والد تولجا قائلًا: نحن نعيش في الصين ونتبعها سياسيًا واقتصاديًا، أما العادات والتقاليد فهي مغولية حتى النخاع، كما أن العقيدة هو أول ما يتم توريثه للأبناء، وبذكر الزواج فالأمر لا يختلف كثيرًا في كل بلاد الشرق، فيمكن للشباب أن يقعوا في الحب ويهيموا في الأحلام ، لكن الأكثرية منهم لا يتم لهم إلا ما يراه الآباء ويفرضه العرف ويتماشى مع التقاليد.

-أتقصد أن الفتاة لا يمكن هنا أن تختار من تتزوج؟، سأل خالد.

-الزواج في منغوليا يتم طبقًا للعادات، ومن يملك القوة على اختطاف الفتاة التي يحب تكن من نصيبه، والحب يأتي بعد ذلك، أو بالأحرى يجب أن نسميه ذلك بالثقة والمودة، ويمكنها أن تختار ما دام منغوليًا، لكن إن لم يخترها هو فهي مشكلة، ولا طائل من ذلك لأنه سيختطفها غيره.

-وهل لهذا التشريع أو العادة أصل؟، سأل خالد

فأجاب تولجا: إن المؤسس الأول تيموجين كان قد خطب له والده إحدى الفتيات قبل أن يقتله التتار بالسم، فتم بعدها اختطاف الفتاة منه وأسره لأنه كان صغير السن، ثم قام هو بدوره بعد تحريره من الأسر بخطفها وجمع الشمل مرة أخرى، فصار هذا عرفًا في كل القبائل، حتى أن بعض قبائل المسملين من الأوزباك والطاجاك لديهم نفس العرف.

-وهل تم اختطافك من قبل يا ألتان؟؟

قالت ألتان في حزن شديد مما سمعت: في الحقيقة هذه التقاليد تتواجد بشدة وثبات هنا في الوادي فقط، أما في المدن فكل شخص يختار من يتماشى معه

على الأقل، وإن كان الاختطاف يتم بصور أخرى تكمن في الوعود والكلمات، ولقد تم اختطافي مرة طبقًا للعادات، لكنه كان شخصًا متفهمًا وغض الطرف عني بعد أن تحدثنا عما سيجرى بعد ذلك وشكل الحياة بيننا. فكان رده بالحب، ولكن ردي عليه كان بأن الحب ليس سببًا كافيًا لأي شيء، فبماذا يفيد الحب إن كان الطرف الآخر لا يحاول الوصول إليك ولا يفهمك؟، وما العائد من حب غير قادر على إسعادك؟، ما هذا الحب الذي يبدأ بالغصب؟ ثم ما هو ذاك الحب الذي لا يقدر على أن يؤكد للطرف الآخر أنني أكفيه وهو يكفيني؟، بل يصنع المشاكل ويبقيني شريد الذهن، أعود من كل حديثي معه خالية الوفاض لا شيء معي سوى الهم والمأساة التي لا تنقطع! وهذه حال طبيبة يختطفها أحد الرعاة.

وفي خاطري فإنه لا يمكن لحب كهذا أن تكون له قواعد، فمن يحب يعرف كيف يكون الحب، ولا يحتاج إلى شروط وقواعد وحكم ومواعظ ليشعر بمن يحب.

لذلك فأنا على أتم درجة من الاقتناع بأن التفاهم أهم من الحب، الثقة في الطرف الآخر بأنه لن يخون ولن يغادر أهم من الحب، الأمان في العلاقة أهم من كل حب لا يعرف سوى المسميات، أن تصبح لديك القدرة على التكيف بطبيعتك والحياة العفوية مع أحدهم هو الحب، الحب لا يمكن أن يكون تملكًا بأية درجة، بل هو المشاركة، الاحترام والتقدير أهم من كل ما عداهما من مشاعر، فالاحترام يولد التقدير وكل ما هو متبادل يدوم...

-نعم يا بنيتي لقد أحسنتِ القول، فمن يستطيعون توفير الحياة الهادئة المستقرة ولو بأقل قدر من الأمان والتفاهم هم من يستحقون التقدير والحب، لأن هؤلاء هم من تكتمل بهم حياتنا ونستقوى بهم على قسوة الأيام وتقلباتها، لكن الأمر سيتطلب الكثير من الوقت لنحاول تفنيد الحسن والقبيح من تلك العادات، قالت الجدة

فقال خالد: أعتقد أن ما نتحدث عنه ليس هو الحب بعينه وإنما الاحتياج والطمع، فالشخص الذي يختطف فتاة فقط لأنه يريدها هو كمن يصيد السمك ويقتله بدافع الحب، والحقيقة هذا ليس حبًا وإنما حب الذات، فمن يقل أنك إن كنت تحب السمكة تخرجها من بيئتها وتقتلها وتشويها على النار وتأكلها؟ الفتاة بائسة لا قدرة لها على المقاومة، ولا طاقة لها على الرفض بحكم العادات، لكن الخاطف يخيل إليه أنه يفعل الصواب وما ترتضيه الأعراف، بحكم ما يعرفه هو من حب، إن الحب في أسمى معانيه هو أن تترك الشخص الآخر يفعل ما يسعده هو وأن تفرح بذلك، لا أن تقتله ظنًا منك أن هذا في صالحه، وإلا لكان واجبًا علينا أن نشكر كل القتلة والمفسدين في الأرض، لأنهم يعجلونا لقائنا بخالقنا بالأضرار التي يلحقونها بنا، بل هم لهم كل الفضل في إراحة من يقتلون يوميًا من عناء الدنيا ومشقتها، لكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا ولا يصح القيام به أبدًا.

فقالت ألتان: أحسنت القول يا خالد، لكن هذا الأمر ليس سهلًا ونحن لا نملك الوقت لإخبار كل شخص على حدى بذلك ومحاولة إقناعه.

فردت أم ألتان في عجالة: كيف يفكر الرجال في بلادكم يا بني؟

-في بلادنا لا تستطيع الزوجة التي ائتمنت الزوج على عرضها أن تأمنه على سر أهلها، لأنها تخاف أن يعايرها به يومًا ما.

في بلادنا يستحي الرجل أن يغازل زوجته أمام أبنائه، لكنه يضربها أمامهم.

في وطني خمسة أشياء يحفظها الرجال عن ظهر قلب ويرددونها دون علم: إن كيدهن عظيم وهذا قول مغلوط لا عمل به.

للذكر مثل حظ الأنثيين.

النساء ناقصات عقل ودين

الرجال قوامون على النساء

ومثنى وثلاث ورباع...

لكن هؤلاء الرجال هم من ينسون أيضًا:

قول الرسول صلى الله عليه وسلم رفقًا بالقوارير، ولكل قارورته هو وليس كلهن.

وقوله صلى الله عليه وسلم أيضًا " استوصوا بالنساء خيراً"

ثم قوله صلى الله عليه وسلم " وما أكرمهن إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم".

وقول الله تعالى "ولن تعدلوا ولو حرصتم".

والحديث الشريف: وخيركم خيركم لأهله.

-هذا عجيب، فلا تخلو قومية من المتناقضات، كما لا يمكن لإنسان أن يفهم عاداته والتقاليد التي نشأ عليها بصورة كاملة، ربما لأنه لا يمكن لأحد أن يعرف الأصل منها كلها، قال عبد القادر.

فأجاب خالد قائلًا: بالتأكيد يا صديقي، لكن الأمر يكمن في الفهم الخاطئ للجزء المعروف أيضًا.

فتلك الأمثلة التي ذكرت آنفًا هي من أكثر المتداول بين الرجال المسلمين، لكن شرحها الديني وأصلها غير ذلك كليًا، فقوله تعالى إن كيدهن عظيم ومع أنه في القرآن الكريم إلا أنه ذكر على لسان عزيز مصر وهو لم يكن مؤمنًا فلا يعمل بقوله.

وقوله للذكر مثل حظ الأنثيين هي حاله فردية يفضل فيها الذكر على الأنثى أما في أحكام الميراث الأخرى فالأنثى هي من تفز بالنصيب الأكبر، لكن لا يتم ذكر ذلك.

النساء ناقصات عقل ودين، يظنونه قولًا يراد به التهوين من شأن المرأة وانحطاط لقدرها، لكنهن ناقصات عقل لفيض عطفهن، فلا يعمل إلا بشهادة سيدتين خوفًا من عطفهن وحنانهن الزائد، مهابة أن تتردد إحداهما في الشهادة إن كانت الشهادة تخص أحد ذويها، وناقصات دين لأنهن يحضن ويلدن، وفي هذا رفعة شأن لا يلتفت الرجال إليها...

القول الكريم "رجال قوامون على النساء" يقصد بها كل مترجل عامل يعول البيت سواءً كان ذكرًا أو أنثى، فالمرأة إن عملت وعالت بيتها في عجز

أو غياب زوجها كان لها الأفضلية والقوامة، لكنهم لا يأخذون من القول الكريم سوى رسمه.

كما أنهم يقرأون قول الله تعالى مثنى وثلاث ورباع، لكنهم لا يكملونه للنهاية أبدًا ، واستكمال القول الكريم يقول: فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة... ولن تعدلوا ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل، لذا فالأولى زوجة واحدة.

-أحسنت يا صديقي، فأنا فعلًا لم ألتفت لبعضها من قبل، قال عبد القادر.

ثم قاطعهما والد تولجا قائلًا: يجب أن أشهد بأن حديثكم شيق يا شباب لا يفرغ ولا يمل منه، لكننا وبكل أسف يجب أن نذهب لجمع صوف الأغنام وحلب الأبقار، إن أردتم فانضموا إلينا بعد انتهائكم، قال ذلك منفضًا من مجلسه.

فأجاب خالد: بالتأكيد يا عم سنلحق بكم، إنه لمن الجميل أن نرى ونتعلم منكم.

انفض الجمع من مجلسهم ولم تكن ألتان قد أظهرت مفاجأتها بعودة أخيها والغريبين بعد، فراحت تخبر خالد على انفراد بأنها قد أعدت له مفاجئة ربما تسعده، وما إن دعته ليلقي نظرة على ما فعلت باليار خاصتها، حتى انبهر خالد مما فعلت، فقد غطت جدران اليار الداخلية كلها بآيات من القرآن الكريم التي كانت تحاول نسخها، كما تضمنت شرح لبعض المعاني التي استعصت عليها، فقد كانت تفعل ذلك كل ليلة دون انقطاع،

ثم قالت لخالد إن أبي يتكلم عن العادات كثيرًا فلا تلتفت، لكن هناك ما هو أعظم من ذلك.

يا ليتك تخبريني بذلك من وجهة نظرك؟، قال خالد

فأجابت ألتان: إن العادات أمر دنيوي يصحبنا هنا فقط، لكننا إن كنا إلى زوال فالأفضل أن نعرف إلى من سنذهب؟ وإلى أين سنذهب؟ ثم الأولى أن نتجهز بماذا وكيف سنذهب؟.

فما كان من خالد إلا أن قفز فرحًا بما سمع منها، فارتطم رأسه بإحدى عوارض اليار ووقع يحك رأسه من الألم حتى تعالا صوتهما من شدة الضحك، ثم أتبع خالد ذلك بقوله: سبحان من رزقك التدبر والوقوف على بعض من حكمته فيما حولك.

الشكر لله ثم لك يا أستاذ، فأنت سببًا في إرشادي، لكنني متشوقة لمعرفة المزيد، قالت ألتان.

لا تتعجلي، وتأكدي من أن كل شيء سيحدث في الموعد الذي كتبه الله له أنا سعيد بحسن اليقين الذي رأيته منك، وأسأل الله لك التوفيق والزيادة.

فقالت ألتان: شكرًا لك، والآن تعال معي لأريك شيئًا آخر.

خرج الغريبان وتولجا وألتان إلى الوادي حيث قطعان الأغنام والأبقار، ولا يمكن لأحد أن يتخيل المنظر المهيب الذي تتزين به وديان منغوليا بعد مطلع الشمس، لا وجود لألوان سوى الأزرق والأبيض والأخضر، فهي تطغى بالسماء المفتوحة، والسحب الكثيفة التي تشبه قطع القطن المصري الأصيل، يخيل إلى الناظر أنه يمكن قطفها كلما مر من تحتها، لكنه كلما

اقترب ابتعدت هي كقلوب المحبين وأمنيات شباب الشرق، أما الأخضر فهو الفرش الرباني الذي حباهم الله تعالى به، جمال لا يمكن وصفه لكنه يحس، وهذه إحدى المواقف التي تعجز فيها الكلمات ويستعصي على البشر وصفها بدقة، مثلها مثل أوقات الفرح والحزن وقبلة الملهوف وحضن العائد وبهجة الناجح وفقد الأحبة، أحاسيس كثيرة لا تُرى، ولا يمكن للعين أن تقف على حقيقتها، لذا فإننا جميعًا نغلق أعيننا عنها لنستشعرها بكامل ما أوتينا، وهنا سأل عبد القادر قائلًا: إذا كان هذا الجمال قد أوجده الله على الأرض، فماذا عن الجنة؟؟

وقد كان أبي دائمًا يقول أن هذا المقام هو من أعظم مقامات العجز اللغوي وقُصور التعبير...

فكُل كلام الدنيا وإن جمَع من الحُسن في وصف جمال ونعيم وشكل الجنة لن يصل أبدًا إلى درجة تبيان حقيقة أمرها، لأن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: " أعددت لعبادي ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمِعت ولا خطر على قلب بشر"، وفي رواية ولا يعلمه ملكٌ مقرب ولا نبي مُرسَل!

فيها ما لا عينٌ رأت بمعنى أن كُل جمال وأي جمال تقع عليه عيناك لا يُمكن أن يضاهي جمال الجنة، حتى أن مظاهر سويسرا وريف فرنسا وبحيرات ايطاليا وجبال الألب وجمال كهوف التبت، أو وديان منغوليا المبهرة هذه، وغيرها من المناظر الخلابة التي لا نعرف عنها شيئًا وإن اجتمعت معًا لا يصح أن نُطلق عليها مُسمى جنة، لأن مقام المسمىٰ أعلى

من كل ذلك بكثير، فكل ما تقع عيناك عليه من الجمال هو جَمال عادي مقارنة بها...

بل والأغرب أنه حتى ولا أذنٌ سمعَت، فمن المُمكن أن نتخيل شيئًا ونرسم له صورة في أذهاننا من مُجرد سماعِنا حديثًا عنه، لكن هذا لا يحدث مع الجنة، فكل محاولات الوَصف والشرح والتبسيط والتقريب تعجز عن إيصال عظمة الموصوف، لأنه من سيَصف لنا الجنة إلا إن رآها!! ومن يُمكن أن يراها من سُكان الدنيا؟

والأعجب قوله سبحانه: ولا خطر على قلب بَشر، بمعنى أن حُسن وبهَاء كل ما تتمنىٰ في قلبك ولا يمكنك الإفصاح عنه، لا يُضاهي جزء من جمالها وسِعتها وهيئتها وحُسن صُنعها...

وإن كانت الحُروف والكلمات تعجَز عن وصف مَخلوق من مخلوقات الله وهي الجنة، فما بالك بجَمال الخالق سبحانه وتعالى!!

سمعت ألتان الكلمات وابتسمت ابتسامة الفرح بما تلقى، أما تولجا فقال: يبدو أنك تعلمت الكثير من خالد في الآونة الأخيرة، الآن تتحدث أيضًا عن أشياء خارج التخصص.

أما خالد فلم يكن منه إلا أن صفق مغمض العينين إعجابًا بقول عبد القادر قائلًا: ربما حان دورك يا تولجا، فالمرء يعرف بأصحابه.

وأكمل الجمع المسير إلى الوادي، وعند الوصول كانت مفاجئة ألتان لخالد وهي تقول: هل لاحظتم شيئًا جديدًا؟

فقال تولجا: هذا الحصان هناك ليس لنا.

فقالت ألتان: صدقت فهو لخالد لأنه يحب ركوب الخيل، والأهم من ذلك أنه أهداني هدية لا يمكن وصف قدرها في قلبي.

فقال خالد: لي أنا؟ لكن...

قالت ألتان: هذه أم عنتر وهي الآن حامل في عنتر جديد لك، يمكن أن ترعاه قدر ما شئت وتمتطيه قدر استطاعتك كلما أمكنك.

وقع خالد على الأرض من شدة بكاء الفرح وقال لها: لا أعرف ماذا أقول، شكرًا لكِ يا ألتان، وأعدك أن أرعى أمه حتى الولادة.

-جميل، الآن يمكنني أن أرتاح قليلًا، فهذا عبء كبير.

مرت عدة أيام وخالد وعبد القادر يتناوبان حلب الأبقار ورعي الأغنام حبًا في التجربة، وخالد يحضر مفاجئة أخرى لألتان التي لاحظها تعيد حركات الصلاة خلفه هو وعبد القادر كل فجر والجميع نيام.

وما أن لاحظ ذلك حتى خطر له أن يعطها شيئًا تتعلم من خلاله الصلاة، فتواصل مع أخيه ليرسل له بعض المرئيات الإسلامية ليسهل عليها المهمة.

ولما وصل الطرد إلى هوهوت، اضطر أن يذهب إلى هناك ليومين ليستلمه ويعود، لكن خلال غيابه اكتشف والد ألتان المكتوب على جدران اليار خاصتها، وسألها عن الكتاب الذي تقرأ منه طوال الوقت، فما كان منها إلا أن أخبرته حقيقة أمرها، وأنها تنتوي أن تصبح مسلمة بعد أن تتأكد من حقيقة ما بداخلها، ليس لشيء إلا أنها تحب القبول على الله وتود التعرف

عليه، ولأن الأسباب والآيات أمامنا ونحن المشغولون عن رؤيتها، أو أننا نسمها بمسميات على غير حقيقتها.

فارتعد والدها غضبًا، مذكرًا إياها بما فعل المسلمون في عين جالوت وبالعادات والتقاليد، وبالقانون الصيني الذي من الممكن أن يرسل من خلاله خالد إلى السجن.

فقالت ألتان: الأمر لا يستدعي كل ذلك يا أبي، كما أن الحروب قد نالت منا ومنهم، وأنا لا أفعل ذلك توددًا لأحد سوى أن قلبي وروحي يرشدانني أن هناك إله، وأفضل تعريف له موجود في الإسلام، ولا شأن لخالد بذلك، فأرجوك لا تحجر على اختياري.

لكن والدها لم يسمع حرفًا مما قالت، بل صم أذنيه واستشاط غضبًا وعارض كل كلامها وطلب من تولجا أن يطرد الغريبان، فمدة إقامتهما قد انتهت، في مساء نفس اليوم عاد خالد ولم يكن يدري بحقيقة ما جرى، فقابل الجمع بابتسامة عريضة وترحيب حار، معطيًا إياهم الحلوى التي أحضرها معه، وصورة عائلته التي راح يقول عنهم، ها هو أبي في نفس قريتي نقول أبا كما تقولون، وأما للأم أيضًا.

فرد والد تولجا قائلًا: دعك من هذا العته وارحل الآن إن أردت الخير لنفسك.

-ما الذي حدث؟، سأل خالد.

فاصطحبه تولجا للخارج وأخبره بما حدث وسأله أن يغادروا بعد الاحتفال بالعيد القومي لقومية المغول تفاديًا للمشاكل، أعطى خالد ما أحضر

لألتان، وعاد إلى اليار الخاص به في حيرة شديدة، لكنه آثر أن يقضي الأيام المتبقية ليحضر الاحتفال ويرى من العادات المغولية أكثر ثم يذهب، لكن ألتان لم تغادر اليار خاصتها لعدة أيام لا تفعل شيئا ولا تشارك في أي عمل سوى قراءة ومشاهدة ما أحضره خالد، حتى أنهم كانوا يسمعون صوتها ليلًا تقرأ شيئًا ما بصوت عذب، لكنهم كانوا يظنون أنها تغني ترويحًا عن نفسها، أو حزنًا من قول أباها، فهذا من الشائع عندهم، إلا أن خالد وعبد القادر كانا يعلمان تمام العلم أنها ترتل القرآن.

وما أن انقضت عدة أيام حتى حل موعد الاحتفال بالعيد القومي.

انقضت عدة أيام وألتان في مهجعها لا يعرف من فعلها إلا ما يسمع منها خلال الليل، وهو السبيل الوحيد للاطمئنان أنها بخير، أما الغريبان فكانا يجولان في الوديان يوميًا لقضاء بعض الوقت والتقاط بعض الصور، وفي فجر يوم الاحتفال خرجت ألتان في زينة لا يعرف لها مثيل، ترتدي أفضل قفطان مغولي لديها، تهذب فرسها استعدادًا للمشاركة في السباق وترتل بعض الآيات من القرآن، كان مظهرها يأسر النفس ويبعث على الفرحة والسرور، بل كان كفيلًا أن ينسي الغريبان ما سمعا من والدها سابقًا، فما كان من خالد إلا أن قال في نفسه: سبحان من اختصر أحلامي في كحل عينيك الأسود.

أما تولجا فوقف هناك للحظات بين المتعجب والمعجب، متعجبًا من فعل أخته الصغيرة ذات الضفائر الذهبية التي عهدها دومًا، ومعجبًا بشجاعتها وصلابة قراراتها.

وصل الجميع إلى ميدان السباق والاحتفال دون أي كلام يذكر، فهم تولجا أن يشترك في السباق وكان لألتان منه نصيب، لكنها قد باعت فرسها مؤخرًا لتشتري مكانه ذاك الحصان التوكماني الأصيل المسمى أم عنتر، لذلك أبت أن تشترك في السباق وقتها واصطحبت خالد وعبد القادر لمشاهدة مختلف الأنشطة وعمليات البيع على أطراف مضمار السباق.

وقبل أن ينتهي السباق بدقائق، وعلى بعد مئات الأمتار من خط النهاية، التفتت ألتان لخالد وقالت له: أريد أن أصبح مسلمة الآن، الآن وليس بعد ساعة، أرجوك أخبرني ماذا يجب علي أن أفعل لأصبح مسلمة؟؟

فرد خالد في عجالة: ماذا تقولين؟ هل أنت متأكدة؟

فردت ألتان: نعم بكل تأكيد، لا أريد شيئًا في الدنيا الآن سوى ذلك.

فأنطقها خالد الشهادتين بحضور عبد القادر، ثم أخبرها بأن عليها الاغتسال والاستعداد لصلاة ركعتي الهداية، فعادت بدورها إلى اليار لتستعد، ومن ثم تبعها خالد وعبد القادر للصلاة.

لما انتهى السباق، لم يجد تولجا من يعانقه من أصدقائه، فعاد مسرعًا إلى اليار ليرى ثلاثتهم يصلون مع بعضهم البعض لأول مرة، فانتظر حتى انتهو وشجع ألتان على اختيارها ووعد الجميع بأنه سيحفظ السر، لكن أم ألتان كانت قد رأت وسمعت ما حدث، فأسرعت لإخبار والدها، الذي عاد مسرعًا في حالة أشد هياجًا من حصان بري يحاول أحدهم ترويضه، ململمًا بعض الأغراض واضعًا إياها في السيارة مصطحبًا ألتان إلى الجبال التي لا يسكنها أحد سوى بعض المنقبين عن الآثار والأحجار الكريمة، محاولًا

أن ينأى بها عن هذا الحيز الذي لم يعد يجده مناسبًا، لكنه كان يقود السيارة بسرعة فائقة، وقبل أن يصل سفح الجبل بقليل، اعترضتهما صخرة كبيرة وانهالت على السيارة لتوقعها من أعلى الجبل كريشة في مهب الريح.

وصل الخبر إلى تولجا عن طريق بعض المنقبين، لكن الأوان كان قد فات، فقد مات كليهما، ارتقت روح ألتان بعد نطقها الشهادتين وصلاة ركعتين في الإسلام، ولم يكن أحد يدرى حب أهل الوادي لألتان سوى عند موتها، ولما سأل تولجا عن ذلك قال: إن ألتان هي من سيدات الوادي في آخر سبع سنوات، وهي من أدخلت رعي الأبقار الحلوب وتجارة الألبان إلى هنا، فساعدت بذلك كل بيت ووفرت فرص عمل للشباب.

أكثر المندهشين كان عبد القادر وكان دائمًا يقول: هل جنت على نفسها؟ أم أنه كان مقدرًا؟ وكيف لها أن تموت في هذه السن الصغيرة هكذا؟

فما كان من خالد جوابًا وهو يحاول إخفاء دمع عينيه إلا أن قال: وما العجب في ذلك! فالأصل في الدنيا هو الموت وليس الحياة، ومن قال بأن هناك أي ضمان للحياة، بل من أراد أن يقدر شيئًا في الدنيا فليخبر نفسه كل يوم بأنه سيفارقه عاجلًا أو آجلاً، ذلك أن الدنيا لا يوجد بها سيناريو محدد يبدأ مع الولادة والريعان والكبر والشيخوخة والكهول والموت. الموت لا يأتي أبدًا حينما تكون مستعدًا، لذا فالأولى أن نستقيم وننتظر الموت.

ولهذا نقول دائمًا عند المصائب إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، بمعنى أننا لله يفعل بنا ما يشاء، ينهي حيواتنا ويحدد أعمارنا كيفما يشاء، يميتنا بفاجعة أو حرب أو حرق أو مرض أو تسمم أو انفجار أو حتى في الفراش صغارًا

أوكبارًا فله سبحانه وتعالى أن يفعل بنا ما يشاء. ربما لو أدركنا ذلك لعلمنا أن الموت حتم لا تؤخره عافية ولا يعجله سقم.

لكن كل ما أنا متأكد منه أنها في مكان أفضل وأجمل من هنا بكل المقاييس، هي الآن هناك حيث ينتهي القلق والحزن والبكاء والتوتر وتنعدم المشاحنات وتتلاشى المضايقات وتموت كل المشاعر السلبية، بل هي الآن هناك حيث يموت الموت نفسه، ومن أراد أن يحيا فعليه أن يعبر أولًا جسر الخلود.

كانت دعاء في بيتها الكبير الذي اختارت به غرفة صغيرة لا يتم استخدامها وتحويلها إلى معمل لتصنيع الأدوية، لكن أول دواء على قائمتها كان تصنيع عقار هلوسة لزوجها الذي لا يحسن التعامل في رأيها، وبعد عدة محاولات قامت بتركيب نوع من الدواء المهلوس الذي لا يخضع لأي من عوامل الرقابة، فكان زوجها هو فأر تجاربها الذي لا يتغير، فصارت تفعل ذلك باستمتاع الدكتور الذي توصل لاكتشاف هام لأنها الوسيلة الوحيدة التي ستظهر نتيجة عملها، تعرض الزوج الشاب إلى الكثير من الهلوسة المصحوبة بصرخات وضحكات هستيرية كانت تمتد لساعات بعد النسب الكبيرة التي يتناولها من ذلك العقار الموجود في مشروبه المفضل عصير الأناناس.

ارتاحت الدكتورة من الزوج المتسلط الذي كان يأمر فيجب أن يطاع، لكنها أصبحت أمام مشكلة أكبر وهي أنها تعيش مع مجنون يسبب لها الصداع والأرق، فكان عقارها التالي عقارًا يريحها من صرخاته وضحكاته فصنعت

عقارًا يشبه المنوم لكنه لا يعتمد على نسب معينة في التركيب، وبعد التجربة الأولى له على الزوج نام لساعات طويلة امتدت لأكثر من يوم كامل، فبادرت بإيقاظه لكن لا مجيب، يبدو أنه قد مات! هي قائلة: يا لهوي يا لهوي، دا شكله مات، أعمل إيه دلوقتي، جلست خلف الباب في وضع القرفصاء تفكر وتفكر، فبادرتها فكرة أنها في قرية بسيطة ولا أحد يسأل عن ماهية الموت فيها، كما أن الكل مشغول في أحداث الثورة وما يتبعها والبلد في حالة تفلت أمني، فلا طبيب شرعي ولا تشريح ولا دياوله.

فاتصلت بطبيب القرية تطلب منه الحضور فورًا، حضر الطبيب فأبلغها قائلًا: البقاء لله. فتظاهرت بالبكاء وبدأ الصراخ والنحيب وكأنها فقدت حبيبها الأول.

أما والده ورغم ما كان فيه من عناء فقدان الولد الوحيد بعد كل هذا العمر فهو لا يريد أن تشرح جثة نجله، خاصة في ظل الإنفلات الأمني الذي ظهر بعد الثورة، ولأنه كغيره من أهل الأرياف الذين يرون في التشريح مهانة للميت، فبحكم معارفه الكثيرة اتصل بمعاون المباحث وطلب تصريح دفن لولده فأحضره أمين شرطة إلى المنزل، تم دفن الزوج المسكين دون أن يدري أحد بما حدث.

كانت الجدة قد فضلت أن يتم دفن ألتان في اليار الخاص بها، ذلك لأنها لم تتزوج وليس لها مكان آخر، فدفنت في أول مكان صلت فيه، وقرأت فيه القرآن وتعلمت فيه عن الإسلام.

وبعد الانتهاء من مراسم الدفن، أصبح خالد على ثقة تامة بأنه لن يصبح في إمكانه المكوث في هذا المكان أكثر من ذلك، رغم سوق العمل المستقر الذي وجدوه والربح الكبير الذي يضمنه السوق المغولي في التسويق هناك بما يتماشى مع تنوع المصادر الطبيعية، فقرر العودة إلى مصر لأنه لم يعد يريد سوى بعض الحنان الأموي والرفق العائلي، فهي الوحيدة التي يمكن له أن يرتمي على صدرها ويبكي كيفما شاء، دون ملل او كلل أو خوفًا من الملامة.

استأذن من تولجا وأخبره أنه لم يكن قاصدًا لأي مما حدث، وأنه لم يفعل ذلك إلا تلبية لطلبها واعترافًا بالآيات التي رأوها معًا، فقال تولجا: لا عليك يا صديقي، ما حدث هي النهاية الحتمية لكل شيء، وربما يجب علي أن أسير على حذو أختي وأتشجع لمواجهة الحقائق التي تسبح في قلبي وأتجرأ على مصارحة نفسي بها، لقد رأيت من ألتان شجاعة لم أعهدها أبدًا رغم أنها أصغر مني، سافر وارتح يا صديقي وسآتي للقائك مرة أخرى عندما يحين الوقت وقبل أن يسافر خالد في الصباح صلّ الفجر في ذلك الوادي الفسيح، ثم جلس في مُصلاه يقول مسترسلاً: مُفرطٌ أنا يا الله لكنك الله، كُلُ الثَناء لك، والحمد لك، والشكر لك، وقلبي وروحي وكُلي بيديك، وكيف لا، وعلى كل شيء قدير لا تُقال إلا لك! مقامُك أجل من التَفكير في النَقص، ورحمتك أكْبر من أن تستثنني من الكُل، لا تضُرك معصِية ولا تنفعُك طَاعة، فاغفر لنا ما مضى وارزقنا الشفاعة.

يارب! اقبلها واقبلني وأحبتي في الصالحين، واجعلنا في التائبين، واهدِنا الصراط المُستقيم، واسكِنّا جميعًا عِليين وأتم علينا سَترك... اكتُبنا في

النَاجين الفائزين المُحبيين المَحظوظِين الناطِقين بالحق، الساعِين في الخير، ولا تَقطع عنّا برك، أنِّر بصائرنا ورقق قُلوبنا وأصلح أعمَالنا وآلف بين قلوبنا واجعلنا سببًا لمن اهتدى، تقبل منّا رغم القِلة ونجنا من الخوف والفقر والهَم والذِلة ولا تكلنا إلي أنفسنا طَرفةَ عَين، علِمنا مَا لا نَعلم وانفعنا بما نَتعلم واصرف عنّا شر ما أُبهِم وكُلُ ما أَنت به أعْلم.

نسألُك باسمك الأَعظم ولأنك اللهُ الأكْرم أن تعفُ عنّا ولا تؤاخِذنا بما صَدر منّا، وأن تواسيني فيما أنا فيه وتملأ قلبي بحبك فأنت المُطّلِع، فما أنهى تلك الكَلمات إلا وأحس براحةٍ تسري في أرجاء جسده، أغنته عن الدُنيا وما فِيها.

عاد خالد إلى مصر وعبد القادر إلى ماليزيا، أما تولجا فبات يقف على خدمة أهله، ويقرأ الكتاب الذي تركته أخته دون أن تنهيه يستطلع أسراره ويواجه به خفايا نفسه.

لما عاد خالد إلى أمه صادف ذلك وقتًا فارقًا في حياة دعاء وكأي أم تشعر بأبنائها راحت تسأله وهو ممدد على الأرض ورأسه على فخذها تداعب خصلات شعره كطفل في الثانية قائلة: لماذا لا تصارحني بسبب عودتك المباغتة تلك يا بني؟ أخبرني ما الذي غيرك لتنفض عن كاهلك بعض التعب والقلق؟

فقال خالد: الكتمان في كل شيء جميل وثوابه عظيم يا أمي.

ولنا في سيدنا يعقوب الكريم عليه السلام مثالًا حسنًا ، فهو الذي لما فقد أعز أبنائه لم يَخرج على الملأ شاكيًا باكيًا مُعترضًا، بل شكى لله وحده ما به

من حُزن، كما أخبر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم على لسانه بقوله: " إنما أَشكوا بَثي وحُزني إلى الله" وسبقها بقوله تعالى: "فصبرٌ جميل والله المُستعان على ما تصفون" وكأن الصَبر وحده لا يكفي لتحمل ما به من تَعب، فقرر أن يحدد لنا نوع الصَبر، بأنه صبر من غير شكوى، ربما لأن الشكوى للناس في تعريفها هي شكوى من يَرحم لمن لا يرحم!

والأوائل من أهل المعرفة كانوا يقولون دائمًا: الشكوى لغير الله مذلة.

سيدنا يعقوب الكريم عليه السلام ببصيرته التي رزقه الله وأنعم عليه بيها، استطاع أن يفرق بين الأمر الذي يحتاج تدخُله والأمر المُوجِب لصَبره.

لنتخيل لو أن الله تعالى منّ علينا ببصيرة تبين لنا الفرق بين الأمور اللي تحتاج تدخلنا والأمور اللي تحتاج لصبرنا فكيف ستكون النتيجة؟ بمعنى أننا ستعامل مع الأمور اللي لا يُمكن تغيرها كالموت والفقد بالسكينة والصَبر، ونتعامل مع الأمور اللي تحتاج لقُدرة على التغيير بالسعي لها بكل ما أوتينا من قُوة وبدون تَردد...

في اعتقادي أن نتعلم متى نرتاح ومتى نسعىٰ، هو نوع آخر من رضا الله عنَّا!

لأنه لا حيلة للبشر فلم نشكوا لهم!! وأنا والله لا أحتاج الآن سوى لمساتك الحانية تلك، فهي عندي بكل ملك ومتاع الدنيا

وما هي إلا أيام وهاتف عبد القادر خالد للاطمئنان عليه، فبدأ المكالمة بقوله: السلام عليكم! كيف حالك يا صديقي وأخي؟ بل يا رفيقي وتربي؟ أم كيف حالك يا خليلي؟

-ما كل هذه المعاني يا عبد القادر؟، سأل خالد.

الحمد لله أصبحت أتدبر الفروق بين الكلمات وأسأل أبي عما أعجز عن فهمه من اللغة العربية يا صديقي، فقد أدركت أنني قد فرطت فيها كثيرًا بعد معرفتي بك وترحالي معك، وأشهد لك لحسن الصحبة يا خالد، قال عبد القادر.

فأجاب خالد: شكرًا لك يا أخي وأنت بمثل ذلك، فالصاحب ساحب.

أما عن حالتي النفسية والمزاجية فالحمد لله الذي وهبني سكينة أمرر بها مصاعب الحياة، مؤمنًا بأن كل مر يمر.

جميل أن أعرف هذا عنك ليطمئن قلبي، قال عبد القادر، ثم سأل خالد قائلًا: وإلى ماذا قادك حزنك هذه المرة يا خالد؟

فأردف خالد قائلًا: في الحقيقة لاحظت جزءًا في الشخصية البشرية لم أدركه من قبل يا عبد القادر، فالشخصية البشرية أكثر ما تشبه البيضة!

ذلك لأن البيضة لو كسرت من الخارج لأصبحت طعامًا، أما لو كسرت من الداخل فإنها دليل على بداية حياة، والإنسان بدوره يشبهها تمامًا... فلو زاد الحِمل عليه من الخارج سمي ضغط، لكنه لو تحامل على نفسه بالصبر فيحوله إلى نُضوج.

أما الإنسان الذي ينتظر زيادة الأعباء على كاهله دون مواجهة، ولا يحاول الاعتناء بنفسيته ويروضها على المَصاعِب، هو في الحقيقة يسمح لنفسه أن تكون أكلة سهلة لكل من يملك زمام أموره أو يزيد عليه الحِمل أو يضاعف عليه الضُغوط.

تحاملنا على أنفسنا وصبرنا على المَكاره يا عبد القادر هو ما يخلق بداخل كل منّا إنسانًا جديدًا بشخصية أكثر نضجًا وتفهمًا، إنسانًا لم يكن لنا أبدًا أن نتوقع بأية صورة أن تكمن بداخله كُل تلك القُدرات والصفات القيمة...

لذلك كان بروس لي دائمًا يقول، " لا تسألوا الله حياة سهلة، بل اسألوه قدرة على مواجهة ما بها من صعاب" وقبل أن تسأل عن قوله تحديدًا فقد قال إلهًا حسب معتقده بكل تأكيد، لكن الله هو مصدر قوتنا، فعلى كل إنسان منا أن يعلم أن لديه من القوى الكامنة الكثير لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، الأهم أن نحاول أن نصبر قدر ما استطعنا! وذكرنا لله يا صديقي ليس استحضارًا لغائب، وإنما هو حضورنا نحن من الغيبة وإفاقتنا من الغفلة كما قال الإمام الغزالي رحمه الله.

فأرجو الله أن يعيننا وإياك على أنفُسنا ودُنيانا يا عبد القادر.

أعدك أني سأستمر على نهجك يا خالد، وسأحاول التدبر أكثر في كل شيء ما استطعت، وأن أرى الأشياء بعيني الثالثة ما وفقني الله إلى ذلك بحوله وقوته، وكتأكيد على ذلك: فأرجوك أن تسألني سؤالًا في اللغة العربية وسأجيبك عنه في المكالمة القادمة بإذن الله، قال عبد القادر.

-أحسنت يا صديقي، فهذا ما يجب علينا جميعًا أن نفعل لنتعرف على الله ونعرف به ما أمكننا! والسؤال هو: ما الفرق بين الحمد والشكر؟ وكلنا نكرر ذلك في قولنا: ربنا لك الحمد ولك الشُكر على كل حال..! لكن نصيحتي لك هي ألا تألف المنظر لمجرد أنه يعجبك للحظات، ولا تُعطي أذناك لمن يُثني أكثر أو يتعامل بسلاسة حتى دون داع، فملمس جلود

الحيات مُريح إن تحولت إلى وسادة أو إلى حافظة نقُود تفيض بما حوت، كل السيارات وكل البنايات تبدو متشابهة من الأعلى بصغرها وأحجامها وتناسق أشكالها، وحتى بدقة زوياها و جمالها أحيانًا لكن إياك أن تُفتن بذاك المنظر في الأعلى لأن هذا ليس مكانك.

ستهبط يومًا ما وسيجب عليك أن تتعامل مع كل ما ألفت وتقبلت مُسبقًا ظنًا منك أنه سيدوم.

لذا يجب عليك أن تنتهز الفرصة الآن لتلاحظ الاختلاف والتشابه بين كل منها، وأن تُدون كل حسنٍ وقبيح، وكل مقبولٍ ومتروك، كن فطنًا وانتهز الفرصة لتصبح أكثر من حولك علمًا وإدراكًا بما يحتاج الإصلاح عندما تهبط، لأنك في النهاية ستهبط.

فالشهادات لا تُعطَى على الهُدوء، والله لا يُكافئ من لم يدخل الاختبار بنفس القدر من الثواب الذي يُكافئ به من دخله واجتازه.

لا تقبل بقول عاش ومات طيبًا لا يُسمع له صوتًا، لأن هذا شأن من مات في مكانه كحيوان لا يفترس ولا يؤكل لحمه، فلم يعلم أحدًا عنه شيئًا، كُن حيًا بعد مماتك، واترك أثرًا يليق بتلك الروح التي أُودعت بذاك الجسد لتنال شرف استحقاقها، اصنع تغييرًا مهما قل قدره، كن مبدعًا في صناعة شيء لا يُنسى وتمسك بحقوقك حتى في صناعة الضجيج، لكن بالله عليك تذكر أن هناك فرق شاسع بين الضجيج والنعيق!...

إياك أن تألف المنظر وإلا سيكون أقل إلكترونٍ لا تراه أنفع منك حيًا وميتًا، وأرجوك لا تحكم علي أو على غيري بالصلاح أو الفسق، لأننا جميعًا

مستورين ولا نستقوى على الشهوات وحب الحياة إلا بمعونة الله، وليس بيننا كامل، لأن الإعجاب بالكمال طبيعي أما الحب الحق فهو حب النواقص، والنقص في البشر هو عين الكمال كما قال التبريزي.

-نعم يا خالد، أتذكر الآن قول القائل:

والنقص في أصل الطبيعة كامن... فبنوا الطبيعة نقصهم لا ينكر، قال عبد القادر.

على الطرف الآخر من الغرفة التي أقاموا بها العزاء الذي استمر أسبوعًا كاملًا كان خالد جالسًا يحتسي فنجان من القهوة السادة، وقبل خروجه طلب من شقيق معشوقة الصغر أن يبلغها تعازيه الحارة، فقال شقيقها: يمكنك أن تبلغها بنفسك يا دكتور، انتظر سأناديها، فحضرت تحمل في يدها منديل قطني على خدها قائلة: شكرًا على حضورك يا دكتور.

فرد قائلًا: الدوام لله يا دكتورة شدي حيلك، لكن هذه المرة هو من مد يده لمصافحتها لأنه لم يعد يرى أنها تمثل تهديدًا له، فقد بات متأكدًا من أنه لم يحب سوى ألتان، وفي كل مرة يرى فيها دعاء يتأكد لديه ذلك الإحساس، فلم ترفض دعاء مصافحته رغم أنها كانت تريد أن تشفي غليلها مما فعل هو في المرة السابقة، لكن المقام لا يسمح.

مرت بعدها ثلاثة أشهر وخالد يزور والدته فيها باستمرار ومعشوقة الصبا دعاء تزور منزل أهلها أكثر مما اعتادت عليه في وجود زوجها، وفي إحدى الأيام خطرت فكرة للدكتورة قائلة لشقيقها: إن كان خالد متخصصًا في

إدارة الأعمال، مش ممكن نطلب منه يعملنا خطة أو دراسة جدوى لشركة لتصنيع الأدوية؟

شقيقها: انتي قررتي تشتغلي ولا إيه؟

هي: أمال هعمل إيه بالفلوس الكتير اللي سابها المرحوم؟

شقيقها: موضوع الشركة ده فكرة هايلة، وأنا المدير طبعًا.

هي: مفيش مشكلة يا أخويا بس شوفلنا الدكتور خالد الأول، قبل ما نخرب الدنيا!

هي لا تفكر في الشركة بقدر ما تفكر بفرصة تجمعها بخالد الذي أصبح الكل يحترمه أكثر من اللازم، فتم استدعاء خالد ومناقشته في موضوع دراسة الجدوى الذي وجده هو الآخر فرصة ليكب تركيزه على العمل لفترة من الوقت، فكان لكل منهما هدفًا يتأبي عن الظهور للعلن.

فأصبحا يقضيان أوقاتًا طويلة سويًا بحكم الحديث في العمل وبحكم مركزيهما، فهي الدكتورة الوقورة وهو موظف يعمل بأجر فصارت تشعر بلذة درجات الثانوية وإحساس التفضل والتعالي الذي فقدته لسنوات.

لكن الحديث بينهما قد تمادى لأبعد الحدود، هي تريد أن تشعر أن خالد يعمل لديها رغم كل علمه ومكانته الإجتماعية وهي الفكرة التي ستمكنها من التعالي عليه، أما خالد فهدغه روحي، يردي أن يتخطى بها بعض العواقب في قلبه ليتمكن من الاستمرار قدر الأجل الذي أجله الله له.

وكما هو متوقع فقد تحايلت عليه وطلبت منه الحضور إلى بيتها لتوقيع بعض عقود بداية العمل سويًا، ذهب خالد بعد أن تأكد منها أن أخوها سيكون موجودًا، لكنها الأرملة التي باتت لديها رغبة في تحصيل تلك اللذة بحكم صغر سنها والأهم أنه دون مقابل، كالطبيخ والغسيل وتلبية الأوامر، لكن الأكثر من ذلك كان طمعًا في رؤية خالد يطيع أمرها، وهو ما يعد لذة مطلقة في حد ذاته.

رحب الشيطان فكرتها أشد ترحيب، ولا شيطان حينها سوى شيطان العقل والغرور، وعند إعمال اللذة يتيه العقل ولا يبقى إلا متاع الشهوة الزائل، لما رأى خالد أن أخيها غير موجود وفطن لما تريد أن تفعل، وهو الأمر الجلي لكل نبيه، استدعته نفسه أن يطاوعها في فعلها ليشفي غليل ما فعلته معه سابقًا حينما تخلت عنه بسبب بعض درجات الثانوية، لكن يوسف عليه السلام وألتان كانا دائمًا في الأفق، يأخذان بيديه ويعينانه على شر الشيطان وشر نفسه.

رفضها خالد بكل ما أوتي من قوة، وصارحها بحبه لألتان وأنه لم يتخطى تلك المرحلة بعد، ولو كان يريدها فعلًا لطلبها في الحلال، أنه من يجد الحليب المجاني لا يشتري البقرة أبدًا، حتى وإن كانت البقرة لا توفر اللبن إلا له، لكنها لم تتقبل الرفض، وهيأ لها شيطانها فكرة أخرى تقنع بها خالد لكنه هم بالرحيل، وقبل أن يستقيم طوله، طلبت منه الهدوء وأحضرت له كوبًا من عصير الأناناس ليهدأ.

نعم هو نفس العصير الذي كان يشرب منه المرحوم سابقًا وبنفس تركيبة المنوم تلك، لكنها كانت جرعة مفرطة جراء توترها وغضبها الشديد، فكانت النتيجة إلا أن خرج السر الإلهي وفاضت روحه إلى بارئها في دقائق معدودة، وإن كانت قد قتلت نفسًا بالخطأ من قبل، فقد فعلتها هذه المرة بكل تعمد، لكن المشكلة الآن تكمن في كيفية التخلص من الجثة! فهي لا تريد لأحد أن يعرف أن خالد كان يأتي إلى منزلها دون علم أهلها، ولا يمكن أن تبلغ أيًا من كان بهذا.

فقررت أن تدفنه بتلك الغرفة الغير مجهزة بالدور الأرضي التي كان يحفظها المرحوم لتشطيبها حسب هواه في المستقبل، فأخذت تجر الجثة من الدور الثاني إلى تلك الغرفة في الدور الأول، وتركتها هناك دون دفنها، ولم تتسرع في إخفاءها بحثًا عن الطريقة المثلى في التخلص منها، فباتت ليلتها تفكر كيف لها أن تتعامل مع الجثة بطريقة لا تخرج رائحة ولا يكتشف أمرها أحد مهما طال الوقت، ربما هناك حل كيميائي!.

لكن في الصباح كان أخًا لخالد يطرق الباب سائلًا عنه لأنه لم يعد للبيت الليلة السابقة، فردت الدكتورة: وإيه اللي هيجيبه هنا؟ أنا ما شفتوش.

ظل شقيق خالد مصدومًا في مكانه لبضع دقائق لأنه هو من أوصله لأول الشارع ليلة أمس، فعلم أنها غير صادقة، لكنه لم يصارحها بأفكاره وآثر أن يحضر الشرطة أولًا.

اجتمع الكل وأتت الشرطة وكل أهل القرية ليجدوا جثة الدكتور خالد ملقاة على أرضية الغرفة تبدو كالنائم في ودائعه ولا آثار للفزع أو المفاجأة

التي تبدو على جثث القتلى، أما دعاء فكانت تحاول أن تهرب من الشرطة ومن أهلها الذين أرادوا قتلها، لتقفز من الدور الثاني، فلا يتخلى عنها الموت ولكنه يأخذ الجنين الذي كانت تحمله في بطنها دون علمها، ذلك الجنين الذي كان من الممكن أن ينقذ حياتها من حبل المشنقة، لكن هيهيات! فتم القبض عليها واستكملت الشرطة تحرياتها بعد تشريح الجثة لتجد كمية المنوم الغير معهودة تلك في الأوعية الدموية لخالد.

وعند إعلام أهل الزوج بسبب الوفاة شكك أبو الزوج في موت ابنه أيضًا وطلب استخراج وتشريح الجثة، فآل الأمر إلى نفس النتيجة، واكتشف الجميع أنها هي القاتلة التي كانت تعيش بينهم في وداعة وهدوء، وتم الحكم عليها من أول جلسة بالإعدام شنقًا.

لما علم عبد القادر بوفاة صديقه المقرب، تذكر كل كلماته كما لو أنها كانت وصية مودع، وقرر أن يرسل خطابًا لوالدته يواسيها فيه ببعض الكلمات ويشاركها حزنها قائلًا:السلام عليكِ يا أمي، أما بعد فإن الرزق بالسعي والصحة بالسعي والموت علينا حُتم، لا تؤخره عافية ولا يعجله سقم، فقد مات خالد ليثبت لك إن الاسم الذي اخترتيه له لم يخلده، لكني أشهد أن ما قام به من عمل سيبقى، ذلك لأن الخلود ليس خلود المسمى وإنما الخلود هو ترك شيء لا ينقطع عائده بعد انقطاع النفس، كما أن الخلود هو إحدى أول مستحيلات الدنيا، لذا فلا يمكن أن نغتر بما فيها، وألا نستمع لما يردده الغربيون دون تدبر بأنه لا مستحيلات في الدنيا، فمستحيلات الدنيا كثيرة ومتعددة لا يراها إلا المتدبر، أول تلك المستحيلات هو شكر الله وحمده كما ينبغي، أو معرفته تعالى كما يجب،

أو رد فضل الوالدين، أو وصف الإحساس بالكلمات كما كان يقول خالد، أو العلم تمام العلم وغير ذلك الكثير.

كنت أتمنى لو أجبت خالد على سؤاله ليعلم أني ما أخلفت وعده، وأنني الآن أعلم أن الشكر يكون بمقابل، فهو لكل من أوصل إلينا نعمة، ومن قدم لنا معروفًا وجب شكره، ولذلك نستخدم شكرًا لك ولا نقول حمدًا لك، كما أن الشكر لا يكون فقط باللسان، بل أحيانًا يتطلب العمل وإيصال ما يعلم ليستوفي الشكر.

أما الحمد فيكون حمدًا لإسداء النعمة أو بعدم إسداء النعم، فنحمد الله أو الإنسان على الصفات الموجودة به، كالكرم والبشاشة والطيبة وغيرها.

يا أمي! لقد صارح خالد من أحب بحبه صغيرًا فقتلته كبيرًا غضبًا لبضع درجات ، لكن لم يتسنى له الوقت ليصارح من عشق وماتت هي هيامًا به.

فعل خالد مع ألتان من عادات أهل الريف ما لم يفعله معكم رغم كل تلك السنوات التي حياها هناك، وكان مستعدًا لفعل ذلك قدر ما تسطع الشمس فوق رأسه معها لأنه فعله بحب.

لقد رأيت منهما العجب العجاب في محبتهما لبعضهما البعض، كانا أشداء رغم احتياجهما لأي سند، جبناء في البوح بمكنونات صدريهما رغم شجاعتهما في قول الحق، حالهم في البوح بالكلمات كبخيل ضم ماله خوفًا عليه من الضياع رغم فرط أيادي كل منهما فيما عدا ذلك من عطاء، فلو أن العين تهوى ما يعجبها، والقلب يميل إلى من يتفهمه، فالروح لا تألف إلا

من يشبهها، وقد كانا لبعضهما البعض كالليل والنهار لا يكتمل إلا بهما معًا.

لقد علمتنا ألتان أن الإنسان يمكن أن يخلع عباءة العادات وأن يموت في سبيل ما يؤمن به، وهذا ثمن بخس إن كانت الهدف هو معرفة الله، وعلمنا خالد أنه ليس هناك شيء يسمى "الصدفة" وإنما هو لفظ غربي دخيل على ثقافتنا الإسلامية ، فقد خلق الله تعالى كل شيء بقدر، بدليل أنه درس ما أحب، أو نال تلك الدرجات التي فقد ما لقي ألتان، وما نبهنا بأن الثبات على الحق واجب، وأن تحري الحلال فرض مهما تعالت الأصوات بغيره أو كان السبيل في ذلك صعبًا، فستهون الصعاب ما دامت الغاية هي رضى الله.

لقد قال لي يومًا بأن إيصال الإسلام للناس في المستقبل لن يستدعي الحروب ولا الفتوح ولا العصبية القبلية، بل سيحتاج فقط إلى إظهار آيات الله في الناس بكل لطف ومحبة، لأنه كلما زاد البغي في العالم وشاع الحرام كلما علت صرخات الفطرة البشرية وزادت حاجتها لمعرفة الله، ومع ذلك سيكون من الصعب جدًا على الأجيال القادمة القيام بهذه المهمة السهلة لما سيلقوه من تشتت.

إن خالد لم يمت يا أمي، لكنه ذهب إلى مكان هو فيه اسمًا على مسمى.

أعدك أني سأعود إلى تولجا لنكمل ما بدأه هو دون أن يشعر، وأتمنى أن تذكري من حولك بأن خالد سيستقبله هناك من يحبونه فلا قلق إلا علينا نحن الذين لم ننهِ الامتحان بعد.

كلنا سنرحل لكن الأهم هو على أي حال سنرحل؟ وماذا ستترك؟

وكما يقول أبي دائمًا، علينا أن نضع بعض الآيات العظيمة من سورة الحديد أمام أعيننا ليل نهار لنقف على حقيقة الدنيا ولا يصيبنا الغرور والافتتان بها وهي قول الله تعالى: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ"

وقوله تعالى:"سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ"

وقوله تعالى: "مَا أَصَابَ من مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ"

ثم قوله تعالى: "لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ"

فتصبّري بالله!

انتهت بحمد الله في يوم الجمعة السابع من أغسطس لعام ٢٠٢٠م

سكن المعلمين الأجانب بجامعة تيانجين للمعلمين ..

مدينة تيانجين/ الصين

ملخص الرواية:

بعد أن تمكنت مني الأفكار، وتضاربت في رأسي الأفعال والأقوال، لم يعد أمامي سوى مشاركة تلك الكلمات مع أولئك الذين يتشاركون معي نفس الحال، فما انفكوا يبحثون عن الطريق، أحاول بها جاهدًا تسليط الضوء على بعض المُسلمات التي يتمسك بها أهل الشرق الذين أنا منهم، تلك المسلمات التي قد تمكنت منّا ومن أقوالنا وأفعالنا واقتباساتنا فظهرت في كل منها، دون أن نقف على حقيقتها أو يتدبر أكثريتنا في المغزى الخفي من نشأتها.

مستعينًا بالله محاولًا بين دفتي هذه الرواية التي أخذت معظم أحداثها عن قصة حقيقية تلمسونها بأنفسكم في سطورها وكلماتها وعباراتها، مستخدمًا في ذلك كل ما أمكنني من مفردات لأوضح بها أنه مازال هناك سبيل لكل من يحاول التحليق بعيدًا عن السرب ولو من وقت لآخر، ذلك الذي يفعل ما يفعل أملًا في معرفة الله أو حبًا في العلم أو خروجًا عن الواقع الذي حُددت صورته أمام أعيننا بالإكراه، ثم بحكم تسارع الأيام تنتهي أعمارنا قبل أن نلتفت لما يقبع خلف ذلك من حقائق.

إن الّذين يحاولون التحليق خارج السرب هم الذين لولاهم لكان حالنا كحال سليمان عليه السلام قبل تلك اللحظة التي غيرت أحداث الدنيا لما جاءه الهدهد بالنبأ اليقين، وهو الحال الذي لا يمكن تخيله.

فأدعوك لتسافر معي في طياتها لنختبر أنفسنا ونرجوا الله أن يمن علينا ببعض شجاعة الهُدهد في التبليغ لما قال لملكٍ سُخرت له الجن والشياطين: أحطت بما لم تحط به دون تردد.

محمد عمر...

عن الكاتب:

حاصل على بكالريوس الأدب الصيني بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر الشريف ٢٠١٢م، دراسات في التجارة الدولية بمعهد كونفوشيوس بجامعة القاهرة ٢٠١١-٢٠١٢م.

حاصل على الدراسات العليا في تدريس اللغة الصينية لغير الناطقين بها عام٢٠١٣م بجامعة جنوب مركز الصين للقوميات.

حاصل على ماجستير اللغة الصينية من جامعة تيانجين للمُعلمين بالصين عام ٢٠١٦م، ودكتوراة فقه اللغة الصينية وآدابها من نفس الجامعة عام ٢٠٢٠م.

عضو هيئة تدريس بقسم اللغة الصينية بجامعة بالاتسكي بجمهورية التشيك بدوام جزئي، وأستاذًا للغة العربية بنفس الجامعة من يوليو ٢٠١٩-يناير٢٠٢٠، نلت بفضل الله بها مسمى أول عربي يدرس اللغة الصينية بأوروبا.

محبًا للقراءة والكتابة والعلم وأهله، وفقني الله لكتابة ونشر أكثر من ٦٠ مقالة في المجالات اللغوية والأدبية والإجتماعية والسياسية والنفسية على منصة ساسة بوست في السنوات الثلاث الأخيرة، مؤسسًا لصفحة

常用词语 لدارسي اللغة الصينية على فيسبوك، ويوتيوبر يهتم بالشأن العربي والصيني تحت عنوان "الحياة والدراسة في الصين"... أرجوا أن أستحق لقب طالب علم يومًا ما وأن يساعدني الله لأترك أثرًا ولو من دخان...